أشهر قصص الغرام

أشرف توفيق

الكتاب:أشهر قصص الغرام

الكاتب:أشرف توفيق

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣



دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

توفيق، أشرف

أشهر قصص الغرام/ أشرف توفيق – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٩٩ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى ٠ – ٨٣٥ – ٤٤٦ –٩٧٧ –٩٧٨

أ – العنوان

رقم الإيداع ١٥٩٧٣ / ٢٠١٩

أشهر قصص الغرام



إهداء

إلى الهوى الأول في حياتي الأولى..

سعاد شرارة امرأة من أحزان وشلال من الرومانسية..

إنها أمي

المؤلف

مقدمة

(١) يكتبها.. الآخرون!!

"الدهشة بداية المعرفة ؟!" أرسطو..

فالإنسان يندهش لما يراه ويحاول أن يفهم، والذي لا يندهش لما يراه ويسمعه فهو ليس هنا وليس هناك. إنه غائب عن الدنيا.. أو الدنيا قد غابت عنه، فالدهشة تصلح في معنى الحب!!

(الحقيقة معبودتي، إني اركع عند قدميها، وأحني رأسي وعقلي وانتظر ماذا تجود به) الفيلسوف مارتن هيدجر.

فهل الحب حقيقة؟ وما هي حقيقته؟ إننا نركع عند قدميه، ونحني رأسنا، وإن كنا لا نصدق وجوده!!

"إن الله قد خلق الكون وأدار له ظهره" أرسطو.

والمعنى أن الله وضع القوانين ولم يعد ينشغل بعد ذلك، تماماً كما تدير سيارتك وتتركها ولكن د. عبد الرحمن بدوي قرر أنه عرف سر ما فعله الله.. أن الله قد خلقالكون وجاءت المرأة.. ولعب الشيطان باسم الحب والجنس فقرر الإله أن يدير ظهره..

"الجمال هو الحرية " ولذا وصف عباس محمود العقاد جبهة الأديبة مي زيادة بأنها جبهة حرة!! أي منتهى الجمال"

"إنك تجد أحياناً وجهاً ينظر إليك إنك على موعد معه، لماذا هذا الوجه بالذات؟! لا أدري لماذا هذا التكوين بهذا الشكل بالذات يؤثر في الإنسان هذا التأثير.. أيضاً لا أدري"..

"الأديب يبدع اروع ما عنده وهو يحب" .. وهذه العبارة "لنجيب محفوظ"..

"إن الذي حدث لي شي بسيط. لقد شعرت فجأة برغبة نحو الآخرين. فهل هذا هو المستحيل" كامو ..

فهل الحب هو المستحيل!!

"كل ما يجب أن تعرفوه هو اقتناعي وقتذاك بأنني أتقمص حياة مسحورة كما كان ذلك بفعل قوة سحرية" مورافيا..

فهل هذا هو وصف حالة الحب.. يمكن!!

"ذهني فارغ. قلبي نازف. ليس لي شخص يحيط بي، ولم أجد شيئاً قط، حتى ولا صديقة "هنري باربوس"

ياميت ندامة على اللي حب ولا...؟!!

نحن الذين سافرنا كثيراً، وأحببنا كثيراً وتألمنا كثيراً، وحدنا نستطيع أن نقدر المزايا المتشابكة لعواطف الرقة، وأن نفهم ارتباط الحب الوثيق بالصداقة... "داريل"..

"احذر الذكريات كما تحذر من ساعة واقفة"... "چورچ شحادة"..

"وجدت أن الحياة البوهيمية الفوضوية جافة مملة!!"

"كولن ويلسون"...

"إلى حبي، الاحتلال الوحيد الذي ترحب أعماقي به، لأنه يحررها أحياناً!!" إهداء في كتاب الأعماق المحتلة لغادة السمان!!

"كنت أرى أن العيب فينا، لا في الحب، وأن الحب حركة طبيعية تعبر بها الحياة عن نفسها، وإننا نحن الذين عقدناه وصلبناه على صليب الخرافة. لم أكن مقتنعاً أن الجنس مغارة ملعونة، كل من لامس بابها الحجري سقط ميتاً . " نزار قباني"..

"لا تقترب من حدودي إلا إذا منحتك أمارات الذوبان.. كم أشتاق إلى ما لم تعرفه النساء عنك، أحن إلى ما لم تأخذه أي امرأة من قبل منك" القاصة: منى حلمي..

"أجمل ما في الدنيا: الحب والرغيف والحرية، المرأة كالظل: تهرب ممن يطاردك، تطارده يهرب منك، الحب حلم والزواج حقيقة، وحياتنا أن نخلط بين الاثنين".. أنيس منصور.

"الحب الذي يحدث بين الرجال والنساء في عالمنا الحديث أو الذي كان يحدث في المجتمعات السابقة منذ أن امتلك الرجل الأرض، وامتلك معها المرأة ليس هو الحب.. الحب لا يمكن أن يحدث بين سيد وعبد"
نوال السعداوي

"الجنس ليس رغبة الجسم وحده، ولكن رغبة الجسم والعقل والنفس، ولهذا لا يمكن لنا أن نفسر الجنس بيوليوجياً فنقول إنه ضروري للتناسل، أو نفسره فسيولوجياً فنقول إنه بسبب التغيرات التي تحدث في نسب الهرمونات في الدم.. إن الجنس أكبر بكثير من هذه التفسيرات المحدودة"
نوال السعداوي.

"بدون المرأة، الإبداع لا يكون جميلاً..." يوسف إدريس.

"وكانت فاطمة تثير الرجال أو على وجه الدقة تثير الرجولة في الرجال، وكأنماخلقت لتثير الرجولة، حتى الأطفال كانت تثير الرجولة الكاملة فيهم، فكانوا إذا رأوها قادمة من بعيد أحسوا برغبة مفاجئة في تعرية أنفسهم أمامها،... من قصة ليوسف إدريس بمجموعة "حادث شرف" .

قد تكون هذه العبارات هي الأفكار التي حركتني، وقد أكون في هذا الكتاب حاولت أن أحل طلاسم بعضها.. أو.. أو.. لكني لا أستطيع أن أنكر أن لها تأثيراً. رغم أنها ليست بقلمي وإنما للآخرين ورغم أنها ببعض التفكير قد تكون كافية لكل شيء.

(٢) سأفعلها بمفردي!!

انشغلت وشغلني موضوع هذا الكتاب، ولكن الحكماء القدماء كانت لهم نصيحة أن هناك ثلاثة طرق لمعرفة الشيء، أي شيء:

- أن تقرأ عنه،
- وأن تسافر إلى أهله،
- وأن تعشقه وتسقط فيه!!

وقرأت عن الحب ما كتبه الشعراء، والروائيون، وأهل الوصف، ووجدت هذا المعنى في الصفحة الأولى من "ألف ليلة وليلة" أنه بسبب الخيانة الزوجية..خيانة زوجة الملك شهريار أو زوجة أخيه الملك شاه زمان ألف ولا يدري أحد من ألف.. ليلة وألف ليلة.فالملك شهريار اشتاق لأخيه الأصغر شاه زمان، واستعد للرحيل وفي آخر لحظة تذكر شيئاً.. وكان لا بد أن يتذكر هذا الشيء. وعاد إلى القصر ليجد زوجته بينذراعي خادم زنجي!! فقتل الاثنين.. لم يتوقف ليسأل لماذا؟!

ونفس المعالجة نجدها بعد ذلك بعدة قرون في بدايات تاريخ القصة العربية عند طاهر لاشين في مجموعته القصصية المسماة "يُحكى أن".. في قصة "حديث القرية"، حيث يسرد حكاية "عبد السميع الإسكافي" الذي كان يعمل موظف، وأعزب، وكيف استدرج زوجة عبد السميع وكانت

رائعة الجمال رغم فقره، لتعمل عنده خادمة. إلى أن كانت إحدى الليالي حيث أمره الموظف بأن يذهب إلى عمدة القرية برسالة وأن يعود بالرد في الصباح بنفس النص "سار عبد السميع على جسر السكةالحديد يفكر وحالة من الشك تملأ قلبه وكان القمر يضيء له الطريق، فأبصر بين القضبان قطعة من الحديد بطول الذراع، فتملكته الرغبة في أن يعود للدار، وحاول التغلب على هذه الرغبة فلم يستطع، كأن قوة خفية تجره للعودة...وأخيراً عاد ورأى سيده في مكان الزوجية من امرأته فهوى بقطعة الحديد على رأسيهما فماتا فوراً."

فلماذا عند السفر؟!ولماذا يعود الزوج فجأة!! ولماذا لا أحد يسأل في لحظة ضبط العاشقين!!

وأستمر مع الصفحات الأولى من "الألف ليلة وليلة " سافر الأخ حزيناً إلى أخيه فوجد الثاني يستعد لرحله صيد ولكنه اعتذر عنها، وتصادف أن نظر "شهريار" من نافذة أخيه الأصغر بعد خروجه للصيد، وكانت صدمة، وجد زوجة أخيه ومعها عشرة من الخدم الزنوج يتبادلون عناقها جميعاً.. بوغت أن مصيبته هو أهون!!فزوجته كانت فى حضن عبدا واحد؟ومن هذا الهوان والخيبة سافر الأخوان بلاد الله لخلق الله ليريا إن كان هذا ماتفعله النساء مع كل الرجال أو أن هذا هو حالهما فقط ؟ ففى بداية "الألف ليلة وليلة "كان الحب والخيانة فى زجاجة واحدة.

هذا هو حال المكتوب عن الحب.. في كل ما تقرأ وتفتح عينيك وتطالع من قصائد.. إنه التمهيد الذي جعل شهريار يقتل كل ليلة فتاة بعد أن

يتزوجها.. خيانة واحدة.. وامرأة واحدة تكفي لوضع السياف مسرور في كل بيت ورواية وقصة وقصيدة شعر.

ولم يسأل أحد لماذا؟! وما هو الحب؟! وكيف جاء الجنس ليكون له هذا السلطان؟!

وسافرت إلى المحبين أو العشاق وأهل الهوى.. لم أسافر إلى بداية التاريخ وإنما إلى أناس أعرفهم وأستطيع أن أستوثق مما فعلوه وأنا أعجب بهم، ثم إنهم أناس جد، وليسوا هلسا، مع ذلك سقطوا في الهوى:

"العقاد" الذي أحب بكل علمه وملاحظاته الدقيقة وكتب يحلل في كتابه "جميل بثينه" الحب.. مع أنه كان في الحب أجمل وأشد خبرة ورجولة من "جميل بن معمر" وما كتبه في روايته أو قصته "سارة" هو دستور لكل العشاق، الكرامة فوق القلب، يجب أن تعرف متى تدفن حبك في القبر، لا تجعل حبك أعمى!! لا تقبل الطعنات في الحب بصدر رحب ولكن إياك والهوان.. أن لا تقبل في محبوبك شريكاً وفلسفته "إنه كالفريك لا يحب شريك".

والتابعي الذي سقط في هوى المطرية أسمهان وقالوا له كيف فعلت بك هذا؟! إن رجلاً قبلك هو أحمد سالم تزوجها في فندق القدس بعد نصف ساعة فقط أقنعها وكلفتها!! ولكن التابعي ملك الصحافة الذي كان قلمه ملكاً أصبح "عليه حكم الهوى ماشي!!".

وفي الحب كثير من النوادر والمعارك الحربية: كامل الشناوي، ود. يوسف إدريس؛ فحكايات العشق هي أعماق الآخرين، وأعماقنا نحن أيضاً، وأعماق هذه الدنيا؛ ولذلك فأروع الرحلات هي التي نقوم بها إلى قلوب الآخرين وسيرهم وأيامهم نرتمي على أحضانهم ونرى بعيونهم، ونتمنى أن نفعل مثلهم، ونحب حبهم، ونعذب عذابهم.

وحينما تأتي المرأة عاشقة مثلما فعلت غادة السمان نعود لحكاية الأخوان "شهريار – وشاه زمان" حيث وجدا فتاه جميلة ينام على ساقها عفريت، ولكن الفتاه طلبت إليهما أن يهبطا وأن يعانقاها الواحد بعد الآخر، وأطلعت الأخوين على عقد به ٥٧٠ خاتماً قد أخذتها من أناس عانقوها قبلهم، وخلع كل منهما خاتمه، وأعطاه للفتاة!! فليس هما فقط بل هو حال النساء حتى مع الجن؟!

لماذا حدث ذلك؟ لماذا تصر المرأة على هدية أو على خطاب أو على قصاصات؟ ..عرفت حينما أصدرت غادة السمان كتابها في رسائل حب غسان كنفاني إليها!! فلا كلمة عن رسائلها له.

إما أن تعشق وتسقط في العشق أن تنتقل من النظرية إلى التطبيق، وأن تأخذ العهد على شيخك من العشاق وتصبح صاحب طريقة في العشق والهوى..

فلا أعرف كيف أكتب عنها ولكني وجدت نفسي ضعيفاً أمام أنثى برج الحمل، وآه من برج الحمل.. ووجدت في معظم الأحيان أني أسقط صريع إمبراطورية "ميم" فأنا أميل إليها حينما أراجع الذكريات أجدها تحمل حرف "الميم" في بداية اسمها!!وإذا كان حرف الميم يعطيني

أحلى علاقاتي، فإن أوثق علاقاتي كانت مع حملةحرف "العين"، ومنهم زوجتي الآن.أما حرف "السين" فهو علاقة خاصة جداً.. جداً حتى الآن لا أعرف كيف أترجمها.فأنا في العشق حالة ترجمتها قصيدة نزار قباني : "بانتظار سيدتي"

أجلس في المقهى.. منتظراً أن تأتي سيدتي الحلوة

أبتاع الصحف اليومية

أفعل أشياء طفولية

في باب الحظ .. أفتش عن برج الحمل

ساعدني يا برج الحمل

طمئني يا برج الحمل

هل تأتي سيدتي الحلوة

هل ترضي سيدتي أن تتزوجني

هل ترضي سيدتي الحلوة؟

يخبرني برجي عن يوم يشرق بالحب وبالأمل

يخبر عن خمسة أطفال

يأتون.. وعن شهر العسل

أبقى في المقهى .. منتظراً عشرة أعوام شمسية

عشرة أعوام قمرية

فالمهم أن يحب أحداً، وأن يعود من حبه ليقول .. لعل أحداً ينتفع أو لعله هو يعيد تاريخه من جديد.

ماذا بقي في المقدمة حتى أقوله؟.. أن أعرض عليك مسودة العناوين التي كنت أنوي إطلاقها على هذا الكتاب وهي برقيات تلخيص له، أو ومضات شرارية يعرف بها:

_ مساء الخير أيها الهوى

_ دفتر الهوى

_ أنا .. أنا أحب!!

_ مسكون بفكرة الحب

_ أوراق الهوى تتطاير

_ إنه الهوى

_ أعلن نفسي عاشقاً

_ جواز سفر عاشق

_ وصف الهوى

_ أيها العشاق أنتم البشر

_ تبادل سفراء القلب

_ نوبة عشق

_ غرام الأدباء وعشق الفنانين

وأنا أعطي القارئ والناشر حرية أن يشطبوا "عنواني" ويكتبوا "عنوانهم" وإني أبارك لهم هذه المشاركة.

أشرف توفيق

الجزء الأول
فصل تمهيدي
مدخل في وصف الهوى

يقول الشاعر الكبير بهاء الزهير، أو البهاء زهير، كما ورد في كتاب الأغاني للأصفهاني أو الأصبهاني كما يقول آخرون:

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى   فو الله ما أدري الهوى كيف يوصف

وبعد قرن من الزمن جاء أمير الشعراء أحمد شوقي فاستعار هذه الأبيات من الشعر الجاهلي وأعطاها للشعر الحديث فقال:

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى   لعل الذي لم يعرف الحب يعرف
فقلت لقد ذقت الهوى ثم ذقته   فو الله ما أدري كيف يوصف

وبعده جاءت كوكب الشرق "أم كلثوم" وفي فيلم "سلامة"، سألوها "قولي عن العشاق" فقالت: عن العشاق سألوني؟وأنا في العشق لا أفهم!!

فهل يعقل أن البهاء زهير لا يعرف الهوى؟!وأن أمير الشعراء أحمد شوقي لا يعرف الحب؟!وأن كوكب الشرق "أم كلثوم" لا تعرف العشق؟!

- هل الهوى هو الحب.. والحب والعشق ترادفان لمعنى واحد؟!

- هل الهوى هو السر الأعظم الذي لا يباح به؟!

وتأتي الإجابات متلاحقة بعد ذلك ومتضاربة.. نعم.. البهاء زهير لا يعرف الهوى إنه شاعر يحب أي أحد، وفي أي وقت، وهو سعيد في كل الأحوال.. إنه ليس محباً ولكنه عاشق؛ فالمحب له واحده، والعاشق له ألف.. أما البهاء زهير فكان له ألف ألف، ولذا فهو لا يفهم في الهوى.. وهذا ليس رأياً سهلاً.. إنه رأى "طه حسين" نفسه فهو يرى أن البهاء زهير لم يشغل نفسه كثيراً بمعنى الحب ولا بمعنى العشق ولا بمعنى الألم.. إنه يرى الجمال فيهواه، ويرى الجميلات فيجلس عاشقاً وبالتالي لم يشغل نفسه بالألم والعذاب والهوان بين القلب والعقل، ولكن طه حسين قال لنا وبدون أن يقصد شيئاً عن الهوى، إن الحب له واحده، والعشق له ألف، ولكن هذه العبارة لم تمر بسهولة على العقاد فجلس في صالونه وجمع مريديه، وأعلن أن طه حسين ارتكب خطأ كبيرا.. لقد عكس المعني بين الحب والعشق.

"فالعقاد يرى أن العاشق هو الذي أوقف حبه على امرأة واحدة، ولم يعرف في حياته غيرها ولذا فهو يعتبر "جميل بن معمر" الشاعر العذري عاشق لأنه كتب شعره في "بثينة" وحدها.

أما امرؤ القيس والزهير وابن أبي ربيعة فهم محبون فقط لأنهم يحبون المرأة في ذاتها.. أي امرأة وليست امرأة معينه وبعينها".

وإذا كان ضبط العقاد للمصطلحات بين الحب والعشق مهما؛ فما معنى الهوى إن كوكب الشرق بعد أن قالت أنها في العشق لا تفهم، مرت بمراحل كثيرة ومتجددة في معنى تلك العاطفة الإنسانية "الحب" عبر سلسلة

من الأغاني والألحان منها: أنساك _ هجرتك _ جددت حبك ليه _ لسه فاكر _ ثورة الشك" وبعدها قررت شيء عن "أهل الهوى" وغنت:

أهل الهوى.. يا ليل   تركوا مضاجعهم

واتجمعوا يا ليل..   صحبة وأنا معهم

فوصف أهل الهوى بالسهر وترك المضاجع والصحبة وتمنى أن يكون الواحد معهم ومنهم هو وصف الحب في حالة ديناميكية.. تفاعل.. حركة.

التعذيب والعذاب.. الألم والإيلام.. عذوبة القبلات والزفرات.. العشق والحب في جملة مفيدة إذن الشاعر "أحمد شوقي" لا يعرف فعلاً الحب؟! إنه لا يعرف المعاني وحدودها وسدودها فهو يجعل الهوى مرادفاً للحب، ويقول أنه لا يستطيع أن يصف. نعم له حق؛ فالحب غير الهوى، والعشق غير الحب!! إنه توقف عند باب الحب، وعرفه بشعره: نظرة.. فسلام.. فكلام.. فموعد.. فلقاء.

وجاء "أوفيد" فارس العبقرية اللاتينية بكتابه "فن الهوى" الذي ترجمه ثروت عكاشة وجعله أنيس منصور مقدمة لكتابه "من أول نظرة" يقول: نعم لا يعرف أحدالهوى غيري؛ فالهوى يعني بوضوح الحب في كأس الحب.. أو الحب في كأس الجنس أو هو يعني أن كلاً من الرجل والمرأة قد سقطا في حب معاً للآخر وبالتالي فأنا أول من يبوح بالسر الأعظم الذي لا يقدر عليه هذا أو ذاك!!

والكتاب هو نصائح في "الهوى"، ويقول أوفيد: "كلنا مشغولون بأن نكون معشوقين لا عشاق محبوبين لا محبين، وهذه أكبر غلطة!! فالهوى فن اتبعني وأنا أجعلك سيداً على كل النساء.. ونفس الوضع للمرأة، إنه يضع لها نصائح بنفس المعنى ويقول أن الآلهة الإغريقية حينما سقطت في حب البشر.. تحركت، استخدمت الفن والتكتيك!!

ولكن الكتاب يبدأ من مرحله متأخرة أن تكون سقطت في الحب وتحاول أن تلفت نظر من تحب فماذا تفعل؟! أو أن تكون سمعت عن الحب وتريد أن تسقط فيه.. فكيف تتحرك؟!

ونبدأ من النقطة الثانية: الحب لا يأتيك وأنت تغلق عليك بابك.. تحرك.. اذهب إلى السينما والمسرح والحدائق والأماكن العامة انظر فيما حولك واختار.. فإذا اخترت حاول أن تتحدث أو تدير مناقشة لا يهم الطرف الثاني فالحب عدوى والمحب الجيد يستطيع أن يسقط محبوبه بالفن.

أما النقطة الأولى، وهي الأساسية في الكتاب فتأتي بعد مرحله السقوط في الحب.. ابعث الرسائل تعرف على أصدقاء من تحب؟!

تعرف على خادمتها.. لابد من خادمتها، واكسبها لصفك حتى إذا كانت متزوجة.. تعرف على زوجها اجعله رفيق عمرك؛ فالحب يبرر ما تفعل؟! فالكتاب ليس كتاباً أخلاقياً ولكنه.. فن الهوى.. آه من الهوى.

ولأن ضبط المعاني ومعرفتها شيء يشغل النقاد والفلاسفة والمؤرخين ورجال الاجتماع وعلم النفس أكثر من العشاق والمحبين.فتح كل الناس عيونهم

على كتاب إريك فروم "فن الحب" فلقد اتضح أن الحب لا يصفه الشعراء ولا يعرفه الملوك الذين عندهم ألف جارية وألف حجرة نوم وإنما الأمر يحتاج إلى علماء النفس الذين كان منهم "فرويد" أشهر من جعل الجنس يقود حياتنا.

العالم النفسي الشهير الدكتور إريك فروم يقول الحب فن وعلم، الحب يا سادةنظرية تحتاج لدراسة!! وهذه النظرية في هذا الكتاب.. ويقول: دعني استفزك بمصطلحات علم النفس حتى أثيرك فتكون معي ولتعرف حقيقة نفسك.. هناك طرفان لا يصلحان للحب قد تكون أنت أحدهما: الماشوستي، والسادي رغم أن كلاً منهما يعتمد على الآخر. الاختلاف الوحيد أن الشخص السادي هو الذي يقود ويأمر ويحتقر ويذل.

أما الماشوستي فهو الذي يقاد ويستعذب الألم والذل والاحتقار، فإذا قلت ما هو الحب بعد ذلك الشرح أقول لك إنه العلاقة التكاملية غير التداخلية؛ فالمحب والمحبوب كل يكون نفسه، فالحب يحيل شخصين إلى شخص واحد ويظلان في نفس الوقت شخصين!!

وقد يقول البعض كما قال أوفيد: الحب نشاط ولكن في كل نشاط يكون الإنسان مدفوعاً بانفعال ما، أو بدافع أو باعث، وقد يكون هذا الدافع هو الجشع أو الطموح أو حب البطولة، ولكن في الحب لا نكون مدفوعين بباعث، أو بنتيجة إذ إنه شيء يشبه الصوفية ولأن الحب إرادة وسعي ذاتي بدون بواعث فإن صفة العطاء هي التي تنطبق عليه أكثر

من كلمة الأخذ ولأن المعاني المادية في نمو فكلنا شغلنا بأن نكون محبوبين لا محبين.

ويضيف إريك فروم: دعنا نفرمل تدفق العبارات حتى نعرف معنى العطاء والعطاء في علم النفس لا يعني بالضرورة أن تضحي بحياتك من أجل من تحب، وإما أن تعطيه شيئاً حياً وأنت بذلك لا تعطي لكي تأخذ وإنما حتى تسعد فالإحساس يرتد. فالحب هنا يعطي الحب، ولذا يقال "الحب يولد الحب" والمجرم يولد من أسرة عقيمة الحب!!

إذن عطاء الحب ليس عطاء مادياً، ولكنه عطاء ثري لأن عناصره: الاهتمام والرعاية والمسئولية والاحترام والمعرفة.. وأنا مع المؤلف في قوله: إنه يعرف من وجه حبيبته كل الأعمال.. يفهم بغير كلام.. يكفي النظر!! ومن الأخطاء الشائعة التي يجب أن نتذكرها هنا التصور أن الحب يعني بالضرورة غياب الخصام أو انعدام الخلاف!! أن هذا مستحيل بل الحقيقة أن هذه الخلافات التي تحدث بين المحبين هي في الواقع محاولات لا شعورية يتجنبون بها صداماً حقيقياً؛ فالحب يكون ممكناً فقط إذا كان الاتصال بين الحبيبين هو اتصال بين المركزين من نفسيهما أو اتصالبين المركزين من وجودهما ومن حياتهما، إذا تعامل كل طرف منهما من مركز نفسه أو من مركز وجوده فإن في هذا التعامل المركزي فقط تكمن حقيقة الإنسان وفيه فقط تكمن الحياة الحقيقية. وأساس الحب. وحتى أكون أكثر وضوحاً فالحب يعني العمق في الاتصال النفسي بين الحبيبين.

وإذا كان هذا هو الوجه النظري لفن الحب فنحن الآن نواجه مشكلة أكثر صعوبة هي التدريب على الحب،.. والكتاب لا يقدم روشتة فالحب هو تجربة شخصية نمارسها بأنفسنا ولأنفسنا، ومن الصعب أن نلتقي بشخص لم يعبر تجربة الحب في صورته الفطرية فإذا قلت لي ما هو سلاحي في التدريب على الحب أقول لك التركيز فحضارتنا العصرية تقودنا إلى نمط من الحياة مشتت يخلو من التركيز.

إذن ما الفرق بين "فن الحب" لإريك فروم – و"فن الهوى" لأوفيد أنه الفرق بين الشعر والعلم.. "فن الهوى" هو الحب في ظاهره في جناحه الديناميكي الواضح، أما "فن الحب" لإريك فهو الحب في باطنه الإستاتيكي الخفي.. إنه النظرية في معناها الأكاديمي، والنظرية عند التطبيق. وأوفيد هو أول شاعر يقول هذه العبارة التي يرددها كل الشعراء من بعده "الزواج هو القفص الذهبي الذي لا أريد أبداً أن أدخله. أعتقد أني سأفقد موهبتي الشعرية إذا تزوجت، ولكن لا أحد يستطيع أن يهرب من المرأة المحبة إذا أرادت أن تقتنص المحبوب"

أما إريك فروم فهو صاحب هذه العبارة الهادئة "الذي لم يتزوج لم يمش في طريق الحب حتى آخره" وعبارة "لا أحد يعرف أن الحب يتفرع بعد الزواج وينتج نوع آخر شديد من الحب اسمه حب "الأولاد".

ولذلك فعندما درس برنارد شو أعمال أوفيد – واسمه كاملاً "لبليوس أوفيدوس نازو" – قال ساخراً كعادته: أوفيد؟؟ ما كان إلا داعراً من مدرسة البتزول الرومانية ولا يستحق هذه المنزلة الرقيقة في الشعر

والرواية، ومكانه على القمة الشماء مسروق في غفلة من معاصريه لأن أسوأ الشعر هو الشعر المرح الذي لا يدفع إلى التفكير، ولا يدعو إلى البحث العقلي، إن هذا الشعر مجرد مداعبات رقيقة ولكنها تافهة للأحاسيس البشرية.ورغم ذلك ترجم "فن الهوى" وطبع منها سبع طبعات بلغة بلد برنارد شو الإنجليزية.

ولكن الشاعر القديم قال عبارة بليغة:"إذا شاب شعر المرء أو قل ماله فليس له في غرامهن نصيب"..فهل إذا أحبت المرأة سمي حبها غراماً؟! وهل الغرام غير الحب والعشق والهوى؟! هل الغرام هو فرع النساء من قضية الحب؟!

فلقد جاء في مختار الصحاح للرازي أن الغرام الشر الدائم والعذاب، وفي القرآن الكريم قوله تعالى "إن عذابها كان غراما" ويفسره أبو عبيدة: أي هلاكاً وإلزاماً لهم ويقال أُغرم بالشيء أي أولع به!!

وفي السيرة والتاريخ الإسلامي أن ابن أبي بكر الصديق في رحلة للشام أحب ابنةأحد الملوك وكتم حبه فلما جاء الفتح الإسلامي للشام ذهب في الجيش وقلبه مقسم بين نصرة الإسلام ورؤية حبيبته، وبعد الفتح انشغل بالبحث عن حبيبته وتزوجها. فانشغل بها حتى عن الصلاة، فراجعه في ذلك أبو بكر وقال له: "طلقها لأنها شغلتك عن دينك"؛فسمع لأبيه وطلقها، ولكنه امتثل ومرض بعد ذلك فشاور أبو بكر أصحابه في أمره فقال له على بن أبي طالب: "اجعله يردها فغرامها شديد". وهذا في المرأة التي قال بسببها علي بن أبي طالب "المرأة شر ولكن لا بد منه"!!واستخدم

الإمام علي بن أبي طالب عبارة "فغرامها" وليس "حبها" وهو سيد البلاغة العربية، يعني شدة الحب أو شدة العشق أو شدة الهوى، فإذا اشتد الشيء صار غراماً.

ولهذا فمعظم الشاعرات تستخدمن عبارة غرام، لأن حب المرأة أشد أو لأنه الحب والعشق معاً..ولكن الشاعر الدمشقي نزار قباني، اختزل كل العبارات والمعاني ووحدها في كلمة "الحب"؛ فإذا قلنا "الحب" فهو "تلك العلاقة بين الرجل والمرأة".وكل قصائده هكذا:

أحبيني... بلا عقدوضيعي في خطوط يدي

أحبيني لأسبوع.. لأيام.. لساعات فلست أنا الذي يهتم بالأبد

أو هكذا:

أحبك جداً

وأعرف أني تورطت جداً

وأحرقت خلفي جميع المراكب

وأعرف أني سأهزم جداً

برغم ألف النساء برغم ألوف التجارب

وجاء فرويد وقال عبارة: "لن تعرفوا شيئاً بغير معرفة الجنس!!"

إذا كان الحب هو العلاقة بين الرجل والمرأة، فإن ذلك لم يكن هو الحال عند بداية العالم. كان الرجل البدائي يلتقي بالمرأة البدائية ويبدد رغبته الملتهبة معها ثم يتركهابعد اتصاله الجسدي بها لمهام أخرى متعلقة بالصيد والقنص. فإذا عادت له رغبته مرة أخرى بدد رغبته مع امرأة أخرى؛ فالعلاقة هي مجرد اللقاء الخاطف بين أي رجل وأي امرأة.. فأين يظهر في هذا المشاع وهذا الانفصال العلاقات الحميمة؟! الحميمة؟! إنها لا تظهر إلا بالانتقال من الزواج الجماعي إلى الزواج الفردي _ بالاستقرار _ فالجنس سابق على الحب في التاريخ البشري؛ ولذا ففي بدايات الوقوع في الحب يكون الدافع للجنس موجوداً ومحركاً لكل شيء فيه، فعلاقة الحب انبثقت يوم أن قرر الرجل أن يستدعي الأنثى بالحسنى ويقدم لهاعقداً من العظم، واشتدت حينما قررت المرأة أن تكون لهذا الرجل وحده وتنتظره حتى يعود من الصيد.

واستخدم فرويد في ذلك رموزاً دينية وكثيرة ظهرت بوضوح فيما بعد في كتابه المتأخر "موسى والتوحيد" حيث استخدم في التحليل النفسي تعبير "الأنا" و"الأنا العليا" و"سلطة ما فوق الأنا والعقل" و"العقل الباطن"، وهي تعبيرات عن الذات والضمير والآلهة والمدفون في مكنونات النفس.

وشاء التاريخ أن يظهر الكاتب الفرنسي بلزاك ككاتب له اهتمامات بالحب يضع هذه الاهتمامات في الرواية أنه يكتب عن هموم الحب؛ ففي روايته "زنبقة الوادي" يتحدث عن الشاب فيلكس الذي يقع في حب اثنين في مرة واحدة كونتيسة من زوجات النبلاء تهبه القلب والنفس وتحرمه الجسد، ونبيلةإنجليزية هي النقيض المقابل لها امرأة عملية تعطيه الجسد، والشاب ممزق لا يستطيع أن يترك واحدة دون الأخرى ويقول عن كل منهما كلاماً مولعاً.

إذن أصبح الكلام عن الحب مخلوطاً بالجنس، وفي قصة "امرأة في الثلاثين" يعرض لنا مشكلة أخرى للحب هي مشكلة السيدة جوليا ابنة دوق من أبناء الملكية ترعرعت بين أحضان التربية الإقطاعية وتزوجت أحد النبلاء، وكان لها نظرة رومانتيكية في الحياة واكتشفت أن الحب شيء والفراش شيء آخر، وأنها تربت في سياج الأحلام ولا تعرف غير هذه الهالة النورانية الغربية.وعلى يد بلزاك ظهر ثالوث العلاقة بين الرجل والمرأة، فلم يعد الرجل والمرأة فقط، فقد ظهر الرجل الآخر والمرأة الأخرى.وقرر "بلزاك" أن الجنس بين أبناء الطبقة النبيلة جعل للعلاقة بين الرجل والمرأة عدة أشكال: الزواج الشرعي _ الزنا والبغاء _ العلاقة غير الشرعية إذا ما ظهر في حياة الزوجة حب آخر.وكان أسوأ ما قاله بلزاك إن الحب أيضاً يموت أو لا خلود في الحب وهذه هي الخطورة أو هذا هو العذاب.ولأن الحب يموت والجنس لا يموت أو الرغبة المحمومة لا تنتهي جاءت كل التحاذير والنصائح ضد الجنس، حتى لا تخرب البيوت، وتضيع الأسر.وظهرت عبارة: الألفة _ العشرة _ المودة.ولذا كانت عبارة

الرسول صلى الله عليه وسلم بليغة حينما قال: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك." فلم يكن شيئاً هيناً أن أكل آدم وحواء من التفاحة، أنهما جعلا الجنس في الحب فجاء .ومع الجنس الغواية..نعم الهوى أن يكون الجنس في كأس الحب، والحب في كأس الحب ولكن المهم أي كأس أو كل كأس، أو الكأس الذي لا ينتهي، على أن الحب ينتهي.فهل وصفت لك الهوى.. أم أني بعد كل هذا أكرر عبارة بدأت بها للشاعر بهاء زهير:

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى

فوالله ما أدري كيف الهوى كيف يوصف

فالهوى هو الذي لا يوصف وهو الأبعد عن كل وصف، هو الغريب المقترب في هذا الزمان.

أوله هزل وأخره جد!

وقال العقاد: " لن أموت قبل أن أعرف ألف امرأة!!"..
ومات العقاد، ولم يعرف هذا العدد، ولكن القليل من النساء اللاتي عرفهن العقاد قد هدينه إلى أعماق المرأة. وما كتبه العقاد عن المرأة يدل على أنه فهمها. ولكن هل فهمها بوضوح؟! وأنه عرفها ولكن بطريقه خاصة جداً!!

ولم تكن علاقة العقاد بالمرأة مجرد معرفة، مجرد دراسة، ولكنه كان محباً وكان عاشقاً وهو أول أديب عربي يجلس ليوضح الفرق ويضع العلامات بين الحب والعشق. وعرف في حبه البكاء. وعرف جروحاً عميقة في كبريائه وتعذب من الشك. وجرى في الشوارع وراء الرجل الذي مزق كرامته واستحل محبوبته.

وللعقاد دراسة رائعة عن المرأة "هذه الشجرة" ورواية أو قصة أروع عنها "سارة" وله منها مواقف كثيرة، وفي ذمته ثلاث نساء أحبهن، وكلهن تجربة تستحق.. إنهن كما يقولون: "يحلوا من حبل المشنقة!!" ومن آراء العقاد في المرأة مثلاً:المرأة تفضل الرجل الذي يجاملها، على الرجل الذي يضع إصبعه في عينها عندما يكون على حق!!

وأن المرأة أما أن تكون أما أو تستعد لأن تكون، فهي تفضل أن تكون زوجة على أي وظيفة أخرى!! وناقشته في ذلك يوماً "غادة السمان" فقال لها: يا سيدتي أنني أستطيع أن أخفي كذبك في ثانية.. كوب واحد من الماء يكفي لغسل وجهك وتذوب هذه الألوان كلها!!

ومن مواقف العقاد الكثيرة معها أمثال أخرى، وأنا أنقل الآن من كتاب أنيس منصور تلميذه ومن كتاب عنه "كانت لنا أيام في صالون العقاد"، فعلى لسان أنيس منصور

"وفي أحد الأيام جاءت السيدة سنية قراعة.. لا نعرفها. إنها سيدة بيضاء ممتلئة.. قيل أنها صحفية ويبدو أنها تعرف الأستاذ، ومن الغريب جداً أننا وجدنا الأستاذ قد أجلسها إلى جواره وليس على مقعد من المقاعد. وأغرب من ذلك أن السيدة قراعة كانت تتحدث أكثر من العقاد، وأنها كانت تضع يدها على كتفه وأحياناً على يده . وهمس واحد في أذني: "هل أقوم وأضربها وأطردها من صالون الأستاذ؟!"

أما السيدة سنية قراعة هذه فهي التي قدمتها اعتماد خورشيد فى كتابها باعتبارها قوادة تقدم لصلاح نصر ما يريد من الراقصات والممثلات والكاتبات أيضاً.

وعندما التقى الأستاذ العقاد مع مذيعة التليفزيون أماني ناشد لأول مرة في التليفزيون – رحمها الله – قال عنها كلاماً غريباً. أنها لا تنطق حرف الثاء صميماً ولكن بتكلف وقيل له أنها تتهيبه فقال كيف تتهيبني وتأتي بفستان قصير كهذا!! وقيل له أنها فتاة أولاً وأخيراً فقال بسرعة: إنها نصف فتاة لقد صبغت بالأحمر شفة واحدة وتركت الأخرى! ولم يقولوا له شيئاً آخر وهمس الجميع كل ده في برنامج ١٥ دقيقة يا عقاد.. يا راجل عينك وقلبك وعقلك!

وأحب العقاد الأديبة مي زيادة، ولكن هذا الحب لم يأت من القلب وإنما جاء من الإرادة والتحدي؛ فقد كانت مي امرأة ازدحم حولها الصفوة وأحبوها جميعاً العقاد وجبران وطه حسين ولطفي السيد و.. وأحس العقاد أنه أعظم من هؤلاء جميعاً، وأنه قبل المنافسة وهو أمر يثيره كثيراً ودخل المنافسة في الحب ولم يبق أحد إلا جوكي واحد لم يستسلم هو جبران ولكن العقاد أمسك الثور من قرنيه؛ صارحها بالحب، وما هو أكثر من الحب.. روت له في رسائلها ما تعانيه من قيود وعذاب، وطالت رسائل العقاد وكثرت وتكدست وانتقلت الرسائل من سيدتي إلى سيدتي الآنسة.. إلى سيدتي الآنسة العزيزة، وأخيراً صديقتي العزيزة. ولكن العقاد ما أن انتصر على الجميع بما في ذلك جبران الشاعر الكبير والشيخ مصطفى عبد الرازق الذي قال في وصف صالون مي الأدبي صفات الجنة "إنه صالون لا يسمع فيه لغو ولا تأثيم" حتى زهد فيها.. وهناك عدة كتب تتهم العقاد بأنه سبب في جنونها الذي أصابها في نهاية أيامها وكانت ترى عارية ذابلة قذرة في الشوارع!!

وأحب العقاد سارة واسمها الحقيقي "إليزة داغر" ولها علاقة بالصحافة فهي من أسرة لبنانية شهيرة في مجال الصحافة والأدب وكانت إليزة في الخامسة والعشرين عندما كان العقاد في الخامسة والثلاثين، ولإليزة داغر اهتمامات بالموضة والتفصيل وصفحات الملابس في الجرائد، ولكنها تختلف عن "مي".. فإذا كانت مي اجتمع حولها الصفوة فقد اجتمع حول هذه السفلة!!

وكتب عنها العقاد رواية أو قصة "سارة" ووصفها بأنها حزمة من الأعصاب تأبى إلا أن تكون امرأة، ولكنه قرر أنه دخل هذا الحب بشهوته لا بقلبه!! ولأنه كان وقتها مع مي. أيضاً دافع العقاد عن الجمع بين امرأتين في وقت واحد، وقال ذلك في نصه "سارة" كيف أن قلبه من الممكن أن ينتهي من حب مي ليبدأ في حب سارة. فهذا ممكن لاختلاف الشعور فهو يحب مي، ويشتهي سارة أو أن حب مي في دائرة الظل والزوال من المنطقة العاطفية، وفي هذه الحالة فالعقاد _ أو أي رجل _ يمكن أن يتجه إلى حب آخر بنفس القوة والضعف، وهو صاحب عبارة "الحب الجديد يبتلع الحب القديم"، ولكن "سارة" جننته، إذا كان أحبها بشهوته فقد أحبته لأنها تهوى الرجال.. إنها تضع الرجال في قلبها كما تضع المفاتيح في سلسلة بلا قيود ولا شروط.. ولاحظ الرجل شيئاً أيقظ عقله تصرف ابنها معها (أن الصغير يقبلها ويصف شفتيها بأنها كريز!!) ودب الشك وأكثر حينما قال له طاهر الجبلاوي قريبه : نعم إنها تعرف ضابطاً شاباً!! وصدقت إحساسات العقاد وذهب للمقابر ليدفن شهوته وخيانتها،وسارة هي المسئولة عن فلسفة العقاد الشديدة جداً مع المرأة وضد المرأة فقد خرج من هذه التجربة مكسور القلب، مرفوع الكرامة.

وجاء الحب متأخراً حب القلب.. أحب العقاد بقلبه ونام عقله فقد كان وقتها في الخمسين من عمره وجاءت هنومة (هانم السينما والفن الآن).. مديحة يسري!! إنه شيء يشبه ما حدث بين أرثر ميلر ومارلين مونرو .. العقل والجمال .. أو الصحافة والفن في قبلة طويلة!! وفعل به هذا الحب الكثير أنه ينطبق عليه ما قاله الفيلسوف الوجودي "مارتن

هيدجر" بأن الحب هو علاقة كونية مفيدة ونركع له ونحني رأسنا له وننتظر ماذا يجود به".. وانتظر ما تجود به الصغيرة السمراء الممشوقة القوام.وحينما أهدته "بلوفر" قلب العقاد الدنيا وغير في القصيدة العربية وقال إن في كل شكة إبرة: فكرة!!

وشعرة في البلوفر يقول:

هنا هنا عند قلبي

يكاد يلمس حبي

وفيه منك دليل على المودة.. حبي

ألم أنها منك فكرة

في كل شكة إبرة

وكل عقدة خيط

وكل جرة بكرة؟

وكانت تزوره في منزله، وقبل الموعد بساعة تحدث له هذه الطقوس يخفق قلبه بعنف، وحتى تصل يكون العقاد قد أطل من النافذة عشرين مرة، وفتح باب منزله متوهماً أن من يصعد السلالم هي عشر مرات؛ فإذا جاءت ينزل السلالم ويأخذ بيدها، ولا يهمه شيء ولا حتى عيون جيرانه، مع أنه كان مع "سارة" يحجز مقعدين في السينما ويدخل قبلها ويجلس

ويرسل التذكرة لها مع صاحبه فتأتي بعد عرض الفيلم بخمس دقائق وتجلس بجانبه وينصرف قبلها.. مثلما جاءت بعده!!

إن حب هنومة حوله إلى روميو جريء وكان يناديها "هاني" أي عسل على فؤاده!! ونظم العقاد فيها أرقى وأجمل قصائده، وعرف شعره الجمال.

تريدين قلبي؟ خذيه خذيه

رويدك لا، بل دعيه دعيه

أخاف على البعد أن تلعبي

به يا بنية وتهمليه

فكم لعبة وقعت من يديك

وقوعا أرى القلب لا يشتهيه

تريدين قلبي؟ خذيه خذيه

ولكن بربك لا تنقليه

وكان العقاد دقيقاً في مواعيده ويرى أن الحضور في الميعاد دليل الاهتمام، وكانت مديحة يسري تعرف ذلك وتأتي في ميعادها أو قبله ولا تطرق الباب إلا في الميعاد، ولذا كان العقاد يفتح الباب قبل الميعاد، وينزل على السلالم قبل الميعاد، وحينما تأخرت عن مواعيدها وبدأ التأخير يصل

إلى عشر وعشرين وثلاثين دقيقة كان يغلق الباب. ويقول أنيس منصور في كتابه "يسقط الحائط الرابع" إنه وجد في بيت العقاد رسائل بخطها أي "هنومة" وصوراً لها معه، وصورة عليها إهداء من نار!! ورسائل تحكي فيها: كيف أنها دقت بابه وأنه لم يفتح، وكيف أنها اضطرت إلى أن تذهب إلى الباب الخلفي، وكيف أن يديها تمزقت على بابه ولم يسمعها،وهناك رسالة لها بقلم أخضر تشكو منه له هذا الهوان!!

والذي لم تعرفه مديحه أو هنومة أو هاني أنها حينما جاءت متأخرة دب الشك في قلب العقاد، وحينما رآها تهبط لمنزله في سيارة ملاكي لا في تاكسي كما تعود أصابته أعراض مرض سارة "القديم" وحينما وجد أنها تأخرت وأن السيارة الملاكي تنتظرها قرر ألا يفتح بابه!! ولم يفعل مثلما فعل مع سارة مراقبة وتأكيداً للشك، لقد قرر أن ينتصر عقله على قلبه وقال شعراً فيه:

خذي عشيقين مثلي

لا، بل خذي الناس طرا

يلقاك هذا بليل

وذاك يلقاك ظهراً

أن تخدعي رب نبل

يخدعك نذلان مكراً

وتشربي الشهد مراً

حتى يقال جننت

قد هنت والله هنت

وبعد بعاد طويل، جاءت إلى صالون العقاد يوم الجمعة النجمة السينمائية في قمتها.. حلوة، مغسولة بالعسل والنور.. الوجه لامع والأسنان والعينان والسلاسل. ووقف العقاد وكان في الصالون السيدة روحية القليني وأنيس منصور وكامل الشناوي، وحينما قالت النجمة السينمائية لروحية القليني: أهلاً يا قمورة!! ردت عليها:إذن فأنت سيدة الأقمار السبعة.

ويقول أنيس منصور في كتابه "في صالون العقاد": إن كامل الشناوي قد بادلها نظرات أشعرها بحرج شديد ثم استدعى كل ذكائه الاحتياطي، وأسلحته السامة وقال بسرعة مذهلة: أنا والله يا أستاذ – ويقصد العقاد – خطر لي الآن أن أجيب على سؤال يا ترى ما هي الأبيات التي تجمع كل فلسفة العقاد في الحياة والحب واليأس والكبرياء واحتقار أجمل ما في الحياة: المرأة والحب!! لأنها أضعف إنسان. إني وجدت هذه الأبيات التي تحكي عن تعبدك لامرأة ثم ترفعك عنها بعد ذلك.. كنت تراها مسجداً فأصبحت كباريه، ولما عرضت عليك نفسها رفضت أن تعربد في مكان كنت تقدسه ما أروع ما قلت يا أستاذ:

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى

وأرتاد فيك اللهو بعد التعبد

وألقاك جسماً مستباحاً وطالما

لقيتك جم الخوف جم التردد

وقولك يا أستاذ:

جمالك سم في الضلوع وعثرة

ترد مها الصفو غير ممهد

إذا لم يكن به من وإلحاق والطلا

ففي غير بيت، كان بالأمس مسجدي!

وخرجت السمراء، وجرى خلفها الأستاذ وصلاح طاهر، وقالت روحية القليني لكامل الشناوي: ماذا جرى يا كامل بك.. ألا تعرف من هذه؟ إنها موضوع هذه الأبيات..

ويقول أنيس منصور وشعرت بأن كامل الشناوي لا ينتقم للعقاد ولكنه ينتقم لنفسه، انتقاماً شخصياً قاتلاً وشعرت روحيه القليني بذلك فسألت أنيس منصور: لا أفهم ما بين هذه السمراء وكامل بك ولماذا بهذا العنف!!

ولم تعد السمراء بعد ذلك طعنها كامل الشناوي بسكين ساخنة وبأعصاب باردة وقرر العقاد نهائياً، أو اضطر أن يقرر ألا يرى هذه

السمراء بعد اليوم فهي في العشرين وهو في الخمسين ورغم محاولاتها إقناعه بأن عملها يقتضي ذلك وبأن لكل وسط متطلباته، وأنها ليست مسئولة عن الذين يحبونها، وإنما عمن تحب وأنها تحبه!! ولكن العقاد لم يقبل المشاركة.. الحب مسألة شخصية.. وقالت له لا يوجد في حياتي رجال آخرون. قال لها ولكنك تحتمين بظل رجال وأنا أرفض الرجال وظلال الرجال!!

وطلب العقاد في جلسة الجمعة التالية الفنان صلاح طاهر وطلب منه أن يرسم لوحة غريبة تحمل معاني الشعر الذي كتبه العقاد وقتل به كامل الشناوي السمراء.

قاله له: ارسم فطيرة حلوة شهية يشتهيها الجائع والشبعان والتخوم، ولكن حام حولها الذباب واقترب منها صرصار؛ فأصبحت هذه الفطيرة على هذه الصورة لا يقترب منها أحد، بل تعف النفس منها وتعزف العين أن تراها!!

والحقيقة أن العقاد لم يعد قادراً على التطلع إلى "هنومة" فقد عزف عنها وعرف عنها أشياء كثيرة ووضع العقاد هذه اللوحة في حجرة نومه وصور العقاد نهاية آخر حب في حياته.. حب التقى فيه الأدب في الفن وتحولت القبلة الطويلة إلى مأساة كاملة:

هونت خطبك جداً

وخلته لن يهونا

بدلت بالنار برداً

وبالهيام سكونا

أنا أمنت الفتوتا

وأنت ماذا أمنت

وقد هنت والله هنت

ولكن العقاد الكاتب الكبير، كان في الحب مخدوعاً أكبرفلا هو انتصر على مي، بل اعترفت مي وهى تعترف لطاهر الطناحي أن جبران هو حبها الوحيد، ولا هو الذي ترك "سارة"، بل هي التي قالت له: الشعراء لا ينفعون في الحب!!.. ولا هو الذي أعجب هنومة، فقد جاء معه أحمد سالم وبعده محمد فوزي، وفي حياتها رجل كان شيخاً للطرق الصوفية !!

أحبها فخدعته

وكان بعضه يمزق بعضه!!.. هكذا قالوا عنه، أو هكذا وصفوه.

وكل الأوصاف لا تخرج عن تعبيره عن نفسه: بعضي يمزق بعضي!! قال عنه العقاد: "لا تزال كما أنت.. لست صغيراً، ولا تريد أن تكون كبيراً!!"

ووصفه أنيس منصور: "قصير القامة وله حضور العمالقة.. لامع الوجه والكرافتة والحذاء والأزرار ولكنه بداخله منطفئ وإن كان الدخان يتصاعد من بين أصابعه! وهو قادر على أن يضحك حتى على نفسك ويبكيك أيضاً، فهو إذا تكلم جرح وداوى، وأوجع ووأسي".

أما مصطفى أمين فكتب عنه: "كان في شبابه يرتدي العمامة والجبة والقفطان، وكان طالبا في الأزهر ثم لبس الطربوش وملابس الأفنديات والتحق بالحقوق، كان يهرب من الأزهر بجسده الكبير وقفطانه ويجلس على قهوة الفن بين كبار الممثلات والنقاد والصحفيين ثم هجر كل شيء وقرر أن يكون شاعراً ثم قسم نفسه بين الشعر والصحافة.. إنه أول من رأيت ينام في النهار ويسهر في الليل!!"

إنه الشاعر الرقيق "كامل الشناوي"، خفيف الدم، وهو دائم الضحك والإضحاك أيضاً.. يقول النكتة فتصبح على كل لسان كأنها أغنية من أغاني أم كلثوم أو عبد الوهاب يتحدث بجدية ثم يتضح أنه في قمة التهريج؛ فقد سأل العقاد يوماً في صالونه الأسبوعي الذي كان يعقده

بمنزله ١٣ شارع سليم الأول بمصر الجديدة: ما رأيك يا أستاذ في المدرسة الماليشية أو الماليثيه ؟! فقال الأستاذ علي أدهم: تقصد النيشتية نسبه إلى ينشتة، وقال الأستاذ العقاد: قد يقصد المانيشية وهي مذهب فلسفي منسوب للفيلسوف ماني الفارسي ومذهبه يقوم على الصراع بين الخير والشر وأن الخلاف هو في الانسحاب والزهد التام.

ولكن كامل الشناوي بمنتهى الرزانة قال: إن مذهب الماليشية يرى أن الإنسان أضعف من كل المسائل والقضايا وصراع الجنس والدين والمال والسلطة فأنا فيلسوف هذا المذهب؛ فالماليشية هي اختصار لفلسفة ماليش دعوة!! ها.. هاها.. هاها.

وفي وقت قليل أصبح من ظرفاء مصر مثل حافظ إبراهيم ومحمد البابلي والبشري وفكري أباظه وغيرهم

ولأنيس منصور في كتابه "صالون العقاد" هذه العبارة: "لو كان لكامل الشناوي صالون لكان أرحب وأشهر من صالون العقاد نفسه!!" وله في كتاب "أوراق على شجر" هذه العبارة: "كان أصدقاء كامل المقربون ضحايا مقالبه حتى أني قلت له أنت يا كامل بك تزغزغ أصدقاءك بالسكاكين!!".

ولمصطفى أمين في كتابه "شخصيات لا تنسى" كلام كثير عن كامل الشناوي فقد كان يجيد تغيير الأصوات وتقليد المشاهير وكان يوقع الشخصيات المعروفة في بعض عن طريق التليفون ثم يذهب لكل منها

لينشر الهجوم المتبادل في الصحافة.. إنه هو الذي فجر جبهة ضرب النار وذهب ليعلن أنه شاهد عليها فقط!!

وعلى الرغم من أنه كان كاتباً كبيراً فقد كان كاتباً كسولاً وكان شاعراً رقيقاً ولكنه نادر التدفق. وحينما توفي حاول المقربون جمع تراثه وكل ما كتب، ولم يكن إلا كتاباً واحداً متوسطاً يمكن أن يجمع فيه شعره ونثره ومسرحيته الوحيدة عن جميلة بوحيرد، وفعلت ذلك مجلة روزاليوسف التي كان نائباً لرئيس تحريرها، ولكنه كان متحدثاً لو جمع تراثه لملأ مجلدات، ومحباً نشطاً، وعاشقاً حقيقياً!!

"فالعقاد يرى أن العاشق هو الذي أوقف حبه على امرأة واحدة، ولم يعرف في حياته غيرها، ولذا فهو يعتبر جميل بن معمر عاشقاً لأنه كتب عن "بثينة" وحدها، أما امرؤ القيس وغيره فهم محبون فقط أنهم يحبون المرأة في ذاتها وليست امرأة معينة وقد كان هكذا كامل الشناوي حتى ظهرت هذه المطربة فعشقها وأوقف ما يكتبه عنها فانتقل بها من الشاعر المحب إلى الشاعر العاشق".

كان غزة الحب في قلبه تغرز باستمرار كما يقول الأستاذ "مصطفى أمين" كان كسينما مترو يغير كل أسبوع فتجده دائماً غارقاً في الحب لشوشته، وإذا أحب حول محبوبته لملكة وإلهة، وركع وصلى لها!! ولكن الحب الذي طال عنده كان للشاعرات والفنانات والمطربات وله عبارات تقطر جمالاً لكل واحدة أحب يوماً نجمة سينمائية فاتنة. وكان إذا حدثها في التليفون ولم ترد عرف أنها نائمة قال لكل من يدخل له مكتبه " لا

ترفعوا أصواتكم فالقاهرة نائمة " وكانت النجمة السينمائية وقتها مشغولة بحب أكبر.. وكان يعرف كامل الشناوي ولكنه كان يردد "إنه لا يستطيع أن يقاوم قلبه.. ثم أن لها الخيار؟!" .

وقد خلق كامل الشناوي طريقة للحب خاصة به، طريقة أفلاطونية، إنه يحب من جانب واحد ويفرض حبه على الطرف الآخر ولا ينتظر رأيها وإنما يهاجمها بحبه ولطفه وقدرة حضوره، وهو متقلب يستطيع أن يتحول من محب إلى كاره من النقيض إلى النقيض.. أما من يحب فهو يحب الجميلات والفارهات مع أنه كان دميماً قصيراً ضخم الجثة، ثم أنه يحب من يعيش في زحام أن الفتاة الوحيدة لا تستهويه وإنما يلفت نظره من تقف وسط الرجال!!

وفي كتاب "شخصيات لا تنسى" يقول مصطفى أمين: "وقد قلت له يوماً إنني ألاحظ أنه لا يحب السيارة الملاكي التي يستقلها وحده وإنما يحب الأوتوبيس كامل العدد فيتشعبط على السلم أو يتعلق بالباب!! فأنا لم أجده جالساً مستريحاً في أوتوبيس حب. كنت أراه واقفاً ينتظر أن يخلو مقعد ولم يجد مقعدا خالياً أبداً هذه حالة الحب الخاصة بكامل الشناوي!!

وجاء حبه الكبير، وكان للمطربة نجاة الصغيرة، وأعطى في هذا الحب كل ما عنده: المجد والشهرة والطبل والزمر، ولكنه خدع فكتب قصيدته "لا تكذبي" ليقول فيها: أحبها فخدعته، جعلها ملكة فجعلته أضحوكة!! وحينما سمعها عبد الوهاب وعرف ظروفها أسماها "إني ضبطكما معاً" وغناها.. وجاء من بعده عبد الحليم "الذي أحبه كامل الشناوي

وأشهره ووقف بجانبه وكانت هذه ميزة كامل الشناوي الكبرى الوقوف بجانب المواهب الجديدة. ومن النوادر المشهورة أن كامل الشناوي فرض أخبار عبد الحليم على الصحافة حتى أن من يقابله يقول له: "إيه أخبارك يا كامل بك.. وإيه أخبار عبد الحليم ؟!!" فغناها، ثم غنتها نجاة الصغيرة لتقول إنها بريئة.

ولكن مصطفى أمين منذ أن خرجت جنازة كامل الشناوي من ميدان الأوبرا وكانت معبودته تقيم بفندق الكونتيننتال بالعتبة في نفس الميدان ولم تلبس ملابس الحداد أو تحضر الجنازة وهو يردد: حرمت صوتها على أذني!!

وبعد أكثر من عشر سنوات وبالتحديد في ١٩٨٥/٢/٢١ نشر مصطفى أمين مقالاً في أخبار اليوم بعنوان "من قاتل كامل الشناوي" وطلب من سيد عبد الفتاح أن يرسم لوحة تظهر فيها صورة كامل الشناوي والمقابر والجزء الأكبر من وجه المطربة المشهورة نجاة الصغيرة!!

وقاضت نجاة الصغيرة مصطفى أمين وسيد عبد الفتاح ورئيس تحرير أخبار اليوم "إبراهيم سعدة"، ونشر وحيد غازي تفاصيل ذلك في مجلة فنية كانت تصدر وقتها اسمها "البلاغ"!! قال فيها إن مصطفى أمين قال لنجاة الصغيرة إنه كرهها منذ قصيدة "لا تكذبي" فقد كان شاهداً عليها وقالت له: أنني لم أحبه، هو الذي أحبني. إنه كان صديقاً فقط!! وأنه طلب منها الزواج فرفضت. وإنها تختلف عنه في كل شيء هي صغيرة وهو عجوز، هي تحب الجلوس لكل الناس وهو لا يحب الجلوس إلا معها.

هي لا تريد أن يعرف الناس من تحب وهو ينشر ذلك ويريد أن تعرف الدنيا كلها أنه يحبني.. لم أقتله ولكن قتل نفسه بغيرته وانتهى الأمر وسحبت القضية.

وسحب مصطفى أمين من الرسام عبد الفتاح رسمة كان سيرسمها لفنانة مشهورة بجوار العقاد عند الكتابة عنه في كتاب "شخصيات لا تنسى" فقد قرر ألا يكرر ما حدث مع نجاة الصغيرة

وفي مقالة من قتل كامل الشناوي" في "أخبار اليوم " قال مصطفى أمين عن قصيدة "لا تكذبي".

"وكان كامل ينظمها وهو يبكي، كانت دموعه تختلط بالكلمات فتطمسها، وكان يتأوه كرجل ينزف منه الدم الغزير وهو ينظم، وبعد أن انتهى من نظمها قال إنه يريد أن يقرأ القصيدة على المطربة بالتليفون. وكان تليفوني بسماعتين، أمسك هو سماعة وأمسكت أنا وأحمد رجب سماعة بغرفة أخرى، وتصورنا أن المطربة ما تكاد تسمع القصيدة حتى تشهق وتبكي وتنتحب ويغمى عليها وتستغفر ربها وتعلن توبتها.. وكان في رأي أحمد رجب ورأيي أن هذا منظر تاريخي يجب أن نحضره.وبدأ كامل يلقي القصيدة بصوت منتحب خافت، تتخلله الزفرات والعبرات والتنهدات والآهات مما كان يقطع، وكانت المطربة صامتة لا تقول شيئاً ولا تعلق ولا تقاطع ولا تعترض، وبعد أن انتهى كامل من القصيدة قالت المطربة "كويسة قوي.. تنفع أغنية.. لازم أغنيها!".. وانتهت المحادثة ورأينا كامل الشناوي أمامنا جثة، بلا حراك!"

وقد علقت نجاة الصغيرة فيما بعد بأن هذه المكالمة كانت يوم الثلاثاء، وأنها قالت أقصى ما يمكن أن تقوله أو تفعله فيوم الثلاثاء عندهم يوم شؤم لا تفعل شيئاً لا تعمل ولا تخرج من منزلها، أقصى شيء أن ترد على التليفون، وقد فعلها وقال القصيدة يوم الثلاثاء يوم النحس عندي!!

ولكن هناك من يقول عن نجاة: إنها "موسوسة" أكثر من عبد الوهاب، ويطاردها إحساس دائماً بأنها ضحية أي رجل تتعامل معه أو تسمح له بأن يقترب من حياتها، وربما كان هذا الإحساس مبعثه أنها عندما بدأت الغناء وهي طفلة وحملت اسم "نجاة الصغيرة" تردد أن والدها محمد حسني الخطاط كان يسقيها "الخل" حتى يؤثر في نموها وتبقى "صغيرة" دائماً، بل أن أستاذنا الكبير فكري أباظة عندما شاهدها لأول مرة تغني على المسرح في حفل ساهر، طالب بمنعها من الغناء رحمة بها، وبطفولتها، وهدد برفع قضية يأخذ فيها حكما يلزم أباها أن يتوقف عن دفعها إلى الغناء، وكانت تصرفات نجاة وهي صغيرة وبعد أن كبرت وتمردت على استغلال أبيها لها، وتزوجت وأنجبت ابنها "وليد" كلها تدلل على أنها لا تثق في الرجال، حتى الرجل الذي تزوجته وأحبته وغادرت بيت أبيها لتتزوجه وتعيش معه لم تلبث في نوبة عدم "ثقة" أن انفصلت عنه بالطلاق..

رغم ذلك يجب ألا ينسى أحد أن "كامل الشناوي _ عاشق الخيانة" كان دفتر عشقه مليئاً بالعاشقات وكانت دنياه حباً في حب؛ فلقد خاض تجارب الحب العذري مع الفنانة الفاتنة كاميليا، وتصارع على

الاحتفاظ بقلبها مع الملك فاروق والفنان الأرستقراطي المغامر أحمد سالم معبودالنساء وقتها. ونجح في شق طريقه بشكل أو بآخر للمطربة اللبنانية نور الهدى، وانتابه مرض الهوى الطائش مع المطربة "طروب" رغم أنها كانت متزوجة وفي وقت غنائها الدويتو مع زوجها "جمال" ... وتوثقت خيوط من الوهم والشعر مع مذيعة تليفزيون كانت تعرض عليه أشعارها رغم أنها كانت بالفرنسية وبكى يوم سقوط الطائرة بها.

ويقال أنه اقترب من عالم الممثلة لبنى عبد العزيز لكنها صدمته ثم رحلت مع زوجها إلى أمريكا!!

***

آخر ورقة حب

دعا ربه أن يكون فرداً

يبدو أن يوسف إدريس – على عكس النبي زكريا – دعا ربه أن يكون فرداً، فجاء مختلفاً عن كل الأدباء والكتاب، صنع لنفسه تركيبة إدريسية خاصة ومذاقاً خاصاً، هذه التركيبة تقترب أو تبتعد عن الواقع لا يهمه،أو لايهم؛فلقد قرر أن يكون المشاغب الثوري العاشق الذي ينزل بحار الممنوع ويغوص في المحظور فكانت رؤيته فى : المرأة والجنس _ السياسة والدولة _ الله والدين.

كان يرى أن من حق الفنان أن يقول كل شيء، ويفعل أي شيء دون ضابط ما دام مخلصاً فيما يقوله ويفعله، دعا إلى الغوص في الفن، الحرية المطلقة دون أية عوائق، وحتى لو كانت تلك العوائق هي قوانين الإبداع الفني نفسه.وله قولة غريبة في ذلك: "الفن هو الرؤية، هو النظرة الجديدة لأي شيء وليس القالب الحديدي المتكرر الممل، ما دامت هناك رؤية مبتكرة فهذا فن، ولا ينقسم الفن إلى قصيدة ومسرح ورواية وشعر.من الذي فعل هذا، وقسمنا نحن المبدعين".. ولهذا تحمس لثلاثة مبدعين وقدمهم بنفسه: صنع الله إبراهيم، ومحمد المخزنجي، ومنى حلمي.

ويستغرب الجميع أقواله الحادة عن بعض الظواهر ومطالبته بنفسه بحقوق لا يتمتع بها أحد كحقوق الفنان في ممارسة التجارب الكثيفة في

الحس، والتحليق الفكري، والتجارب الوجدانية، التي تخرج على الشائع والمألوف والسباحة مع التماسيح وأسماك القرش، والتحليق في أعلى القمم، التي لم يعرفها بشر، لكي يحول هذه التجارب القصوى ذات اللهب إلى كتابة فنية جديدة طازجة. فلم يعد هناك فرق لديه بين ممارسة الحياة اليومية العادية، وبين خوض التجربة الفنية الكثيفة.

إن الكثير من غرابة سلوكه الظاهري لا يرجع إلى خلل في الأخلاق ولا انتهازية الفن، بل إلى شقاوة الطفل الفنان وهو يحرق أصابعه في نار التجربة الجديدة، لأنه يريد أن يغوص في جوهر التجربة، إلى جوهر المرأة وأعماقها.. إلى آخر آفاق الإحساس الإنساني، إلى أخر آماد العقل والتفكير إلى إفناء العقل في هاوية الغيبوبة وتتبع الصور والرؤى المنطلقة.

ولهذا كان يمر بأزمات شديدة أهمها في رأيه أنه يملك اعتقاداً بأنه لم يحقق ما كان يصبو إليه في الكتابة الفنية؛ فيوسف إدريس فردي الهوى يرى العالم بعينه هو، وللعالم مذاق خاص عنده!! وإذا تحدثنا عن علاقته بالمرأة، سنجد أنه لديه آراء ومعتقدات لا تنتهي عنها فمثلاً مما قاله في كتاب "ذكريات يوسف إدريس" لرشاد كامل: "يا عزيزي.. أرجو ألا يغضب أحد من كلامي.. أنا من أنصار أن يحدث طلاق واثنان وثلاثة إلى أن يقع الإنسان على اختيار صحيح بدلاً من أن يضيع العمر في اختبار شيء يطول ويمل!!.

"أنا لست من أنصار أن يهدي الكاتب شيئاً مما يكتب لزوجته".
وحتى وقت قريب لم أكن أستطيع أن أكتب و"رجاء" – يقصد زوجته –

بالمنزل، كنت أبعث بها إلى أمها؛ فالكتابة عورة كنت لا أطلع عليها أحداً إلا بعد أن تصبح مندثرة في المطبعة!!

ولم يكن من الكتاب الذين يحملون فلسفة "أنا مسئول عن العمل المكتوب وحده" وإنما كان يقول: أنا مسئول عن عمل وضع تحته اسمي!! ولذا لم يعترف للمسرح والسينما بأنهما عالمان منفصلان عنه. وإنما قرر أن يكون النص هو السيد في كل الفنون ولذا تجده يختار بطلاته ويجلس معهن ولقد فعل ذلك مع "نادية لطفي"،"ماجدة" ،و"فاتن حمامة"!!

ولم يعرف كاتبة أو فنانة أو واحدة إلا وأطلق عليها في اللقاء الأول عبارة "صديقتي" وقد انبهرت "نادية صالح" وهي تسأله في برنامجها "من مكتبه فلان" عن أصدقائه: فقال "نادية صالح" وكانت أول مرة تقابله!!

وحينما قدم مجموعة "منى حلمي" قال في التقديم: لازلت أذكر تلك الليلة كنت في زيارة للصديقة نوال السعداوي؛ فنوال كاتبة مفكرة ثائرة قصاصة ككتلة ملتهبة من الشمس، انفصلت واستقرت على الأرض ولا تزال شمسية ملتهبة، لم تبرد بعد ولا أعتقد أنها ستبرد.. وبعد عشرة أسطر عن د/ نوال السعداوي تحدث عن ابنتها "منى" صاحبة مجموعة قصص "أجمل يوم اختلفنا فيه!!" ثم أنه اختار من عبارات المجموعة أقربها لنفسه: علاقتي بقلمي كعلاقتي بملامحي وأعضاء جسمي، علاقة نفسية وعضوية، أحملها داخلي، أتنفس بها أتحرك خلالها، أحلم معها، أغضب من أجلها وأهدأ فيها.. ليقدم المجموعة!!

ولهذا لم يكن صدفة أن يسير في جنازته ست كاتبات: فريدة النقاش، اعتدال عثمان، ود. نهاد صليحة، سلوى بكر، نهى رضوان، فوزية مهران، وأن تصدر عنه مجلة "نص الدنيا" عدداً خاصاً!!

ولهذا كان زواجه حدثاً غريباً جعل "نعم الباز" تضع زوجته مع من وضعت في كتابها "زوجاتهم وأنا" سنة ١٩٧٤ فقد وصفت يوسف إدريس بالغرابة "كان غريباً تختلط فيه الرقة المفرطة بالعنف الشديد.. كان صريحاً بشكل عجيب.. "حدثته وكأني أعرفه من زمن بعيد".

وقالت إنها منذ شعرت بأنه وضوح وغموض، عنف ورقة، وكأنه باستمرار هدف يسبق عاصفة.. ولكنك لا تعرف هل بدأت أم سوف تبدأ.. ظلت تشفق على زوجته حتى قبل أن تراها "لأنها سمعت منه أنها صغيرة وأنه رآها فعبر لها عن ذلك بقوله "فقررت أن تكون لي" وتزوجها بعد فترة قصيرة!!

وكان هذا الحوار بين الزوجة ونعم الباز بعد ٩ سنوات زواج!!

- كم عمر زواجك..؟

- ٩ سنوات.. هي عمري تقريباً.. فقبلها لم أكن شيئاً يذكر.. كنت فتاة صغيرة مثل مئات الفتيات في بلدي.. أخذت قسطاً من التعليم بالمدارس الفرنسية، وألتقط من الجرائد ما أريده :أخبار الموضة، أخبار البنات.. أقرأ قصة.. ثم جاء إلينا يوسف صديقاً لأحد أقاربي.. وجدت نفسي مشدودة إليه.. لقد كان بالنسبة لي

فارس الأحلام وكنت في قمة حلمي حينما تقدم لخطبتي فعلاً..
وتم زواجنا بسرعة وتعجب الكثيرون لهذا الزواج.. فكيف يتزوج
الكاتب الذي مازال في أول الطريق يمشي على الحصى من فتاة
صغيرة تمشي بحذر إلى دنيا أخرى جديدة وتتلمس من يأخذ بيدها
في هذا الطريق الجديد.. كل منا يتحسس طريقه ولم يتبين بعد..
أما أنا فكنت أعتقد أن طريقي مفروش بالورد ومعي فارس ذو
العيون الخضر.. ولكني فوجئت بالأشواك وفوجئت بالظلام يلفني
في كثير من فترات حياتي الأولى معه كان بالنسبة لي كالجبل أريد
أن أتسلقه لأستريح فوق القمة.. عند الجنة التي كان مفتاحها
صعب العثور عليه وكثيراً ما أطل الفشل بإصرار.. ولكن كنت
أحاول أن أصل إليه.. كان متناقضاً وعجيباً.. مرة حنوناً رقيقاً
ناعماً ومرات عزوفاً بعيداً عني.. كنت لا أعرف متى أقترب منه
ومتى أبتعد عنه؛ فقد كان بالنسبة لي شخصيتين الأولى الطبيب
مفتش الصحة الذي يخرج صباحاً لعمله ويعود ظهراً، والثانية فنان
أديب فيه كل ما في الفنانين من حساسية والتقاط لما حوله وكأنه
مغناطيس أو كاميرا حساسة جداً.. وكنت أنا ضحلة في معلوماتي
قراءاتي كلها خفيفة جداً.. وربما كان توفيق الحكيم هو الكاتب
الذي يشدني للقراءة ولكن لم آخذ من القراءة ركناً مهماً في
حياتي.. وكان لا بد أن أحاول الوصول إلى منابعه، وكان لا بد أن
نتقابل أو حتى نمسك بخيوطنا التي تتعقد...

– متى اهتز بكما عش الزوجية بعنف؟

قالت وكأنها تغلق صندوقاً لن يفتح إلى الأبد..

- اهتز كثيراً وبقسوة حينما كنت صغيرة.. عندما كنت على أبواب تفكيره.. وأعتقد أن هذه الهزات هي التي جعلت العش المصنوع من القش ينقلب إلى عش متين البنيان ولكن فيه رقة العش وحنانه ودفئه، وفي رأيي أن الحياة الزوجية التي تمر بفترات قاسية وهزات عنيفة عمرها أطول وبنيانها أقوى من الحياة الزوجية العادية التي تكون كالماء الفاتر الذي لا يمر بمرحلة الغليان أبداً.. ومن رأيي أيضاً أن التعارض والاحتكاكات هي التي تخلق التفاهم وتقارب من وجهات النظر.

فهل كانت نعم الباز تعرف حكايته وغرامه مع تلك المغنية؟!سألتها:

- ما هي القصة التي هزتك من قصصه؟

قالت بسرعة:

- هزتنى قصة اسمها "اللعبة"، وهي قصة لا تحكى، ولكنها عند قراءتها تعطيك إحساساً معيناً وتفكيراً معينا، وربما لا تكون أحسن قصصه ولكنها جعلتني بعد قراءتها أنشغل بالتفكير فيها وقتاً طويلاً.. أما القصة التي جعلتني أبكي فعلاً فهي "لن تقوم القيامة".

أما إذا تحدثنا عن علاقة أدبه بالجنس منذ نشر أول قصة له بعنوان "أنشودة الغرباء" سنة ١٩٥٠ ومجموعة "أرخص ليالي" سنة

١٩٥٣ فيكفي أن نشير إلى وجود ثلاث دراسات عن أدبه استخدمت فيها عبارة "الجنس":

- دراسة الجنس والمجتمع في مجتمع قاع المدينة عند يوسف إدريس "كاترين كويام"
- دراسة فلسفة الحرام عند د/ يوسف إدريس "د/ غالي شكري"
- دراسة قانون الصمت في أدبه بين الدين والجنس "كاترين كويام"

ويكفي أن نقرأ مجموعة "بيت من لحم" وقصة "بيت من لحم بالذات"، أو رواية الحرام التي صدرت عن الكتاب الذهبي سنه **١٩٥٩** لتعرف فلسفته الخاصة في الجنس والتي تشبه لحد كبير ما يقوله العالم النفسي "فرويد".. الجنس هكذا بلا سبب،إن عذابنا الذي أصابتنا به لعنة الآلهة منذ آدم.. أو نحن نعذب به.. كما كانت آلهة الأولمب تعذب تنتالوس بأكثر من عذاب وأكثر من صورة.. ولكن الإله العبقري الحقيقي.. عذبنا بشيء واحد ".. الجنس + وانفخ يا إبليس".

في "بيت من لحم" يرضخ الجميع للقانون، وتدور لعبة الخاتم في صمت لا يخرقه أحد، تزوجت الأرملة من المقرئ "الضرير" والبنات الثلاث جائعات محرومات جنسياً، والخاتم هو الوسيلة الوحيدة المتاحة للشيخ الضرير، لمعرفة "حلاله" وبالخاتم "الشرعي" الذي يحلل الحرام تبدأ القصة:

الخاتم بجوار المصباح، الصمت يحل فتعمي الآذان، في الصمت يتسلل الإصبع، يضع الخاتم في صمت أيضاً المصباح، والظلام يعم، في الظلام، أيضاً تعمي العيون.

الأرملة وبناتها الثلاث/ والبيت حجرة/ والبداية صمت.

الأم وبناتها، وكلهن مبصرات، صامتات. أما الشيخ الضرير، ولأنه ضرير، فإنه يضحك، وينكت، ويغني حتى يستبدل الإحساس بالبصر الضائع، كان أول الأمر يقول لنفسه إنها طبيعة المرأة التي تأبى البقاء على حال واحد؛ فهي طازجة صابحة كقطر الندى مرة ومنهكة مستهلكة كماء البرك مرة أخرى، ناعمة كملمس ورق الورد مرة، خشنة كنبات الصبار مرة أخرى، الخاتم دائم وموجود صحيح، ولكن وكأنما الإصبع الذي يطبق عليه كل مرة إصبع، إنه يكاد يعرف، وهن بالتأكيد كلهن يعرفن، فلماذا لا يتكلم الصمت، لماذا لا ينطق؟

ولكن السؤال يباغته ذات عشاء، ماذا لو نطق الصمت؟ ماذا لو تكلم؟

مجرد التساؤل أوقف اللقمة في حلقه، ومن لحظتها لاذ بالصمت تماماً، وأبى أن يغادره. بل هو الذي أصبح خائفاً أن يحدث المكروه!!! ويرى "كاترين كويام" أن هذه القصة هي المعالجة العصرية لما جاء في التوراة في سفر التكوين عن لوط.. وقالت البكر للصغيرة: "أبونا قد شاخ،وليس في

الأرض رجل ليدخل علينا كعادة أهل الأرض هلمي نسقي أبانا خمراً، ونضطجع معه، فنحيي من أبينا نسلاً" فسقتا أباهما خمراً

أما في الحرام "فلاحظ لحظة القرار بالجنس عند يوسف إدريس، كيف يربطه بظروف السقوط الاجتماعي" ولا يعطيه أبعاد العاطفة والحب ويعمد إلى إبراز قطبي العلاقة فيه، وكأنها ممثلة للخير والشر" وفي إحدى لحظات الدلع عند المريض، طلب الزوج من عزيزة: نفسي في البطاطا يا عزيزة.. وذهبت عزيزة، أخذت تضرب بالفأس دون جدوى لمحها محمد ابن صاحب الحقل،فأقبل يساعدها في البحث عن البطاطا، ونجح فعلاً في أن يعثر لها على حبة." ولكنها في لهفتها لم تفطن إلى الحفرة التي كانت وراءها، وعلى هذا سقطت فيها وما كادت تحاول أن تقوم حتى كان محمد إلى جوارها في الحفرة يساعدها. مرة واحدة وجدت نفسها في حضنه وقد أطبق عليها بذراعيه ليرفعها..ليقع الحرام "

أما القصة التي أثارت زوجته فهي قصة "لأن القيامة لا تقوم" والتي وردت في مجموعة "لغة الآي آي ص ١١٥ " فهي قصة طفل يراقب خيانة أمه مع عشيقها يصف لقاءها بأنه شيطاني متوحش!! ونفس المعنى في قصة "الأوتوبيس ٩٩٩" أو سنويزم أو الأوباش عن اللعبة الجنسية البشعة في الأتوبيس والتي انتهت أخيراً في ١٩٩٢ بحادث فتاة "العتبة". فضيحة مجتمع فى عز الظهر.

ماذا يقول عنها د/ يوسف إدريس:"اللعبة تتم في صمت، ولا أحد يخرج على قواعدها، والقاعدة أنك ما تشوفش، وإذا شفت كأنك ما

شفتش، وإذا حصل لغيرك مالكش دعوة، وحتى إذا حصل لك، حل عبقري. مش كده؟"

إن القهر الجنسي غير الإنساني، الذي تتعرض له المرأة في الأتوبيس، لا يعني أحداً وعندما يثور الأستاذ الجامعي الدكتور عويس ثورة محدودة لإرضاء فضوله يعاقب فقد تدخل فيما لا يعنيه،كيف المجتمع يعنينا جميعا. الأخلاق تعنينا.

أما عالم السياسة عنده فمعروف بانتقاله من القصة القصيرة إلى كتابة اليوميات ثم المذكرات ثم محاولة أن يكون له وجهة نظر مع وزير الثقافة ورفعه دعوى عليه وكيف أنه كسبها؟! ثم في حواره مع رئاسة الدولة حتى حاول أن يقوم بدور في العلاقة المصرية الليبية في وقت كانت فيه متعثرة باجتهاد منه..أما جذور ذلك فترجع إلى أنه كان من البارزين في تنظيم "حديتو" اليساري وكان من أعضاء مكتب الأدباء والفنانين، وله سمة شيوعية. ثم أنه كان الكاتب الوحيد الذي شارك في "مسيرة الأدباء" عندما فجر اليهود الكاتب غسان كنفاني فسار في مظاهرة ومعه [نجيب سرور، يحيى الطاهر عبد الله، عبد الحكيم قاسم، أمل دنقل، عبد المحسن طه بدر.وكلهم ماتوا بما فيهم المشاغب يوسف إدريس.. أليست هذه ملاحظة؟!]

وجاء اهتمامه بالدين واضحاً في أدبه في قصة "داود" وقصة "أم الدنيا" وقصة "أقتلها"، ولكنه كان اهتماماً من خلال قضية اجتماعية ومن خلال أعماق مسكونة بالمرأة؛ فالأسطى شرف الطباخ في "أم الدنيا": رغم

سفره وغيابه الطويل لا يقع في الخطيئة منتظراً زوجته. "ركب الباخرة، بعد أن قضى في بلاد الناس شهوراً طويلة عانى في أثناءها ما عانى من الحنين إلى امرأته فردوس كان يقاوم ويضعف أحياناً ولكنه لا يطيق أبداً يرتكب الفحشاء ولو بالنظر اشتهائه للمرأة الرومية ذات الأرداف، مستعيذاً بالله ومتسائلاً: هل سلطها الشيطان عليه"

وأحد الإخوان المسلمين يتحدث لزعيمه عن عشق الشاب الإخواني للسجينة الشيوعية في إطار شيطاني: ألم أقل لك يا مولانا؟ لقد سحرته الشيطانة، ركبته.. ثم يتوجه بحديثه إلى الشاب العاشق: مادامت الشيطانة قد ركبتك، فقد حل دمك أنت، قبل أن يحل دمها، هي أنه ليس قانوناً خاصاً بمجموعة من الأفراد، ولكنه قانون ديني عام ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما.

ورغم أن مؤسسة الزواج، بقواعدها، وقيودها، تتسع للرجل والمرأة معاً، فإن للرجل خصوصية دينية واجتماعية.من الناحية الدينية فإن للرجل حق الزواج بأكثر من واحدة، وعندما يستسلم أبو سيد لعجزه الجنسي يائساً من الشفاء، فإنه يمني نفسه بتعويض هزيمته من خلال ابنه وحتبقى راجل.. وأجوزك يا سيد.. سيد.. حجوزك واحدة حلوة.. لا.. أربعة.. أربعة حلوين عشان خاطرك.. وتبقى راجلهم.. (من "قصة أبو سيد").

ومن الناحية الاجتماعية، فإن "خطيئة" المرأة تختلف عن "خطأ" الرجل حتى لو كان الفعل واحداً، وهو في العملية الجنسية لا بد أن يكون واحداً، عند العثور على الطفل اللقيط الميت، يفكر أفندي مأمور التفتيش

في "فاعلة" الخطيئة، وكأنه ليس للخطيئة فاعل أيضاً، ترى كيف تكون فاعلة ذلك الحرام؟ أو على وجه الدقة، كيف تكون الزانية؟

ما من مرة ذكرت أمامه الكلمة إلا واقشعر بدنه، مع أنه كان له مثلما لمعظم الناس علاقات قبل أن يتزوج وحتى بعد أن تزوج. ولكن كأنما كان يستعيذ أن يوجد نساء في العالم يخطئن مثلما تخطئ النساء معه، وكأنما من أخطأن معه لسن زانيات. الزانيات هن من يخطئن مع غيره .. من "رواية الحرام".

ويواصل الرجل تفكيره الذي يميز بين الرجل والمرأة، إلى درجة الفصل التام بينهما من الناحية الجنسية، ولكنه لا يبحث عمن قد يصلح ليكون الأب، هو يبحث عن الأم، فهو مستعد أن يصدق الحرام في النساء، الرجل دوره في الحرام طياري: أما المرأة فدورها أساسي.. هو يبحث عن الأم.. وفي بحثه هذا لم يترك أحداً.

وهذا التمييز بين الرجل والمرأة لا ينفي عمومية المشكلة الجنسية، وصدامها مع الدين الذي ينظم العلاقة ولا يسمح بالخروج عن هذا التنظيم، ما الذي يفعلهالمحرومون والمحرومات جنسياً، ما الذي تفعله الزوجة التي تعاني الحرمان رغم زواجها؟ هل يملك الدين ورجاله إجابة نهائية حاسمة؟

سؤال زلزل كياني مرة من شابة.. كانت بالقطع شابة.. المشكلة تبوح بها في تردد ثم بلا خجل تنطق الزوج كف من شهور عن معاشرتها!!

ولا فائدة، فإدمانه السبب.. وإدمانه ميئوس.. ومحاولاتها فشلت.. وتخاف الفتنه.. ماذا تفعل"؟

" من قصة: أكان لابد يا لي لي أن تضييء النور.

بل إنه يستخدم أسماء دينية لبعض قصصه مثل قصة "أكبر الكبائر" من مجموعة بيت لحم.بل إنه يجعل البطل هو "الشيخ عد العال" إمام مسجد الشبوكشي في حي الباطنية بطلاً لقصة " أكان لا بد يا لي لي أن تضييء النور" ولي لي هي الشابة الجميلة أعجوبة الحي بجمالها المصري الإنجليزي، وفي القصة هزيمة الخير أمام الشر إذا كان سلاحه الجنس. ويستجير الشيخ" يارب.. مستغيثاً صرخت".. ليست استغاثة أرحني لملأ أعلى، ولا ناطقة بلسان ضعف البشر.. هي استغاثتي أنا.. كنت قد بدأت أغرق.. أواصل النظر لا عن رغبة في المجابهة وتصعيب الامتحان.. وإنما عن عجز أن أكف عن النظر.وليس في انتصار "لي لي" على شيخ الجامع ما يوحي بهزيمة الدين وإنما هي الفلسفة النهائية للدكتور يوسف إدريس؛ فالرجل كان يفهم الدين ويفسره بطريقة شديدة الخصوصية، أثارت عليه ثائرةالكثيرين وحواره مع الشيخ شعراوي مشهور حين قال فلقاء تلفزيونى " في الدين: العقل كالمطية يوصلك للسلطان ولكن لا يدخل بك عليه؟! "

فقال له: "يا شيخ عقلي يفتح الديوان!!"

فقال عنه الشيخ شعراوي: "هو رجل في المنطقة الأولى من الإيمان: بين الكفر والتحدي!!"..

وقال له يوسف إدريس: "هل عادت صكوك الغفران؟".

وجاءت قصة "الجيوكندا" لتبرر علاقته بتلك الجميلة صاحبة الصوت الحلو حيث قال فيها "فكل قداسات الدنيا من المحال أن تباعد بين القوانين الأعظم للحياة إذا وجدتا، الرجل والمرأة إذ ثالثهما هو القانون الشيطاني الذي لا يمكن عصيانه، وسمى هذه المجموعة القصصية "أنا سلطان قانون الوجود"

ولكن هل هذه القفزة التي أريدها.. لها تأثير على أسرة هذا الرجل العظيم؟!لا أظن فأنا لا أكشف الحجب ولا أفتح المغلق أو آتي بالمستور وإنما ما أقوله كتب ووثق..وعرفته تلك العظيمة الزوجة "رجاء".

أما "نسمة" ابنته فقد يكون هذا بالنسبة لها أول مرة إذا صادفت هذا الكتاب ولكن لا أحد يعرف تاريخ ما حدث، ولا ظروفه. لقد كان الرجل عظيماً يعترف بضعفه وضعف الإنسان

يا سادة.. نحن نتحدث عن يوسف إدريس الذي قابل عمر الشريف فقاله له: "أين أنت يا رجل.. لم نعد نسمع شيئاً عن المرأة معك ماذا حدث.. لا تنسى أني طبيب.. ها ها؟!"

والذي قال في اجتماع للأدباء مع الأديب الكبير أرثر ميللر: لماذا تزوجت مارلين مونرو؟! وهل هناك تأثير لأدبك في هذا الارتباط؟ أو ما تأثيرها على ما تكتب؟!

- نشر "يوسف الشريف" في كتابه عن كامل الشناوي "آخر ظرفاء ذلك الزمان" أن المطربة نجاة الصغيرة هي التي كتب فيها كامل الشناوي قصيدة "لا تكذبي" التي صور فيها واقعة ضبطها متلبسة بخيانته، رغم أن جميع قصص هيام كامل الشناوي انتهت وبالضرورة إلى الخيانة حتى أن صالح جودت سماه "شاعر الخائنات" وأن غريمه كان كاتب القصة القصيرة الشهير وبدأ الكلام في مجتمع الأدباء..

وبسرعة طلب يوسف إدريس الأستاذ "يوسف الشريف" وفي مقهى "ريش" وعلى الملأ من الكتاب قال يوسف إدريس: أنا الخائن في قصيدة "لا تكذبي" ولا داعي لاتهام أحد غيري ولما لا يكتب الكاتب بجرأة، نعم أنا..ولم يستطع أحد منكم أن يفعلها ولا كامل الشناوي نفسه!!

وفي العدد رقم "**٣٣٦٥**" من روزاليوسف عاد يوسف الشريف ليقول ما يأتي: دعاني الفنان جمال كامل إلى مكتبه ليضيف واقعة جديدة تحكي قصة ضبط يوسف إدريس في سيارته الفولكس بطريق المعادي، وإلى جواره المطربة الخائنة، وقال: كنا في سيارة فتحي غانم ومعنا كامل الشناوي بعد اجتيازه مرحلة الشفاء من التجربة في طريقنا إلى منزلي بالمعادي وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل، لكن لحسن الحظ أن كامل الشناوي الذي نزل من السيارة ليقضي حاجته لم يلمح يوسف إدريس والمطربة الصغيرة على مرمى البصر من مكاننا!

أيضاً زارتني "باتعة" التي كانت تعمل مديرة لمنزل كامل الشناوي في أخريات عمره، وروت لي الكثير مما غمض أو فاتني من أسرار حياته، وكيف اختفت من حياته شهراً كاملاً حتى فاجأته بحديثها في التليفون، ونقلت إلي أنها تعمل الآن لدى المرابين اللذين كانا يهدداه، بليغ حمدي وعبد الرحمن الخميسي بتقديم الشيكات التي يداينهما بها إلى النيابة بعد اكتشافه أن رصيدهما في البنوك صفر، قالت له:"لقد تمكنت من حيازة ثقة المرابين ومن الوصول إلى مكان الشيكات التي تهددك"وسوف تشعل فيها النار فوراً، لكنه اقسم يميناً مغلظاً على الاعتراف أمام النيابة بديونه للمرابين وهددهما بالشهادة على جريمتهما حتى أعادت الشيكات إلى مكانها وعادت أدراجها إلى منزله.

روت لي كيف كان كامل الشناوي يرقب عن كثب سرقة بعض خلصائه لزجاجات دواء الليتريزون المستوردة باهظة الثمن آنذاك، الخاصة بعلاج الكبد، وكانت تأتيه هدايا من أصدقائه في البلاد العربية، وكان يغض الطرف عن السرقة في كل مرة، وكلما سألته: لماذا؟ كان جوابه: يمكن محتاجينها للعلاج أو لبيعها في السوق وصرف ثمنها في أمور ضرورية!!

وعندما سألت _باتعة_ التي تعمل الآن موظفة في مؤسسة "روزاليوسف" عن حقيقة واقعة خيانة مطربته الصغيرة، قالت أنها تذكرت حادثة تليفونية جاءته من الفنانة الراقصة كوثر شفيق زوجة المخرج عز الدين ذو الفقار، وفي أعقابها ارتدى ملابسه على عجل واضطراب شديد، وهناك ورأى عينيها في عينيه وشفتيها على شفتيه، ولم يرجع إلى منزله في

تلك الليلة، ولمدة عشرة أيام كاملة قضاها في منزل صديقه الأستاذ مصطفى أمين الذي نجح في إقناعه بأن يبث بواعث نفسه وحسرته في قصيدة، ثم أقنعه أن يلقيها بصوته في التليفون على مسامع مطربته الصغيرة حتى يبرأ من دائها.. وإذا بها تقول له في برود: الله يا كامل.. دي قصيدة رائعة، ثم وكأن شيئاً لم يكن، تابعت قائلة، ممكن يا كامل تكلم الأستاذ عبد الوهاب عشان يلحنها لي وأغنيها بنفسي؟!.

وهكذا استطاع كاتب القصة المتفرد أن يفعلها في شاعر العصر كامل الشناوي؟!

هل لهذا صنع كل هذه القصص القصيرة عن فلسفته في الجنس؟..
هل كل هذا الندم في كتاباته ندمه.. هل قصة اللعبة التي اختارتها زوجته هي قصه المطربة الصغيرة التي لعب بها العمالقة في عالم الفن والأدب!!.

***

ملك الصحافة والنساء..
.. وملكة بحق وحقيقي !!

سافر محمد التابعي إلى الهند وكان معه أنيس منصور، وخرج عليهما في "كلكتا" إحدى ولايات الهند فقير هندي بجرابه مجموعة من الثعابين، وطلب من كل منهما "روبية" وهي عملة هندية، مقابل أن يقول لكل منهما اسم من يحب؟!.. وكتبت الثعابين لأنيس منصور بتموجات جسدها على الرمال كلمة أنيس..**اما التابعى فكتبت الثعابين اسمها على الرمال** " أيلي أو آمال" والمعنى أن أنيس منصور لا يحب إلا نفسه، أو هو مشغول بنفسه عن الدنيا والناس!! أما التابعي فقد كتبت الثعابين كلمة أيلي أو آمال، وتعجب التابعي فلم يكن هذا الاسم ضمن من أحب ولكنه بعد سنوات اكتشف أن أسمهان اسمها الحقيقي في شهادة الميلاد "آيلي" وكانوا يقولون لها "آمال"!!.

ما أن جاءت هذه الأسرة من جبال الدروز إلى بساط النيل حتى تغيرت الخريطة الفنية والمعادلة الصعبة، جاءت الأم الأميرة عاليا المنذور ومعها ابنتها أسمهان، وشقيقاها فريد الأطرش وفؤاد خوفاً من شيء ما. ويقال كان يتعقبهم أحد ويريد أن يقتل أسمهان بخاصة. وعلى حدود مصر ضمنهم سعد زغلول فدخلوا بدون باسبور، وتغير كل شيء بعد أن كان الصراع بين عبد الوهاب وأم كلثوم أصبح بين أسمهان وأم كلثوم..ورقص الهرم مع فريد الأطرش وسامية جمال. أما أغرب ما حدث فهو الذي حدث لمحمد التابعي الرجل الذي أقسم ألايتزوج،تحول الذي

كانت هوايته أن يجمع قلوب الممثلات والراقصات كأنه يجمع طوابع إلى طلب الزواج والإلحاح فيه، تحول ليكون أحد طوابع البريد الملصقة في الألبوم الخاص بأسمهان!.تحول التابعي من سميع معجب بعبد الوهاب ضد أم كلثوم إلى معجب ولهان "بأسمهان"ضد الجميع وأعجبته أغنية "أنا اللي أستاهل" حتى أن عبد الوهاب بعد أن كان إذ زار التابعي في بيته ذهب إلى غرفة نومه وفتح دولاب ملابسه وأخذ منه ما يعجبه من أربطة العنق بخاصة، اكتفى في علاقته به بالتليفون بعد أن أصبح لا يسمع إلا أسمهان.

فقد كان التابعي أحد الصحفيين الذي قرر أن يكون ملكاً حتى أنه كان إذا ذهب إلى باريس أو لندن سأل عن الفندق الملكي ولم ينزل إلا فيه!! أما التابعي الذي ذاق الفقر والحرمان قرر أن يذوق الكافيار والنبيذ، وبعد أن كان يركب الباسكليت في تنقلاته من المجلة إلى المطبعة، أصبح البشوات يحسدونه على ماركة سيارته. فقد كان شعار التابعي "وأما بنعمة ربك فحدث" ولكنه كان يفهم الآية خطأ، فكان يحدث النساء بذلك دون الرجال، يعطي امرأة يعجب بها في أول لقاء خاتم "سولتير" ويعطي أصدقاء عمره في أعياد ميلادهم قلم حبر أمريكاني ولم يستثني من ذلك إلا عبد الوهاب!!.

فلم يحدث في تاريخ الصحافة المصرية أن عاش صحفي في المستوي الملكي الذي عاش فيه التابعي، وقد قلده فيما بعد في غرامه بالسيجار والماء المعدني محمد حسنين هيكل، وفي جمال هندامه والعناية به علي حمدي الجمال، ولكن أحداً في بلاط الصحافة كلها ما استطاع أن

يقلده في دونجوانيته حتى مصطفى أمين نفسه فهو الذي اعترف في كتابه "شخصيات لا تنسى" أن التابعي سلطان العشق وكتب عنه تحت عنوان "سلطان الحب في القرن العشرين".. في الوقت الذي كانت فيه الأفيال تمرح في سماء الفن والصحافة والناس مشغولة بمن يكون البرنجي (أي الأول) يوسف وهبي أم الريحاني _ العقاد أم طه حسين _ عبد الوهاب أم "أم كلثوم" — تحية كاريوكا أم سامية جمال!! أجمع الجميع على أن برنجي الصحافة هو محمد التابعي.

اعترف بذلك الجميع فها هو مصطفى أمين يكتب للتابعي من واشنطن في ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٥٢ يقول "أستاذي العزيز أقبلك ملايين القبلات وأرجو أن تكون موالياً على التمرينات في النادي الأهلي، وقبل كل شيء لا أعرف كيف أشكرك على اهتمامك بمقالة "طظ في أمريكا" ووضعها في الملزمة الملونة!!

وكان التابعي – كما يقول مصطفى أمين – "قوياً مع الرجال، ضعيفاً مع النساء وكان لا يثق في أي رجل بسهولة، ولكنه يثق في أي امرأة بسهولة، وكان أستاذاً في جذب النساء بكل اللغات وكل الأجناس، فقد كان مولعاً جداً باللغة الإنجليزية ويجيد الفرنسية وكان يستطيع أن يكتب مقالات بالإنجليزية وبلغت درجة إجادته بها إلى اختياره مترجماً للبرلمان المصري سنة ١٩٢٤ رغم أنه تقدم معه حاملو درجات علمية من جامعتي أكسفورد وكامبريدج، ويبدو أنه كان بالتابعي عقدة معينة فقد كان يحب أن يظهر بين الجميلات ويظهر أنه كان يرسل صور رحلاته إلى المجلات التي

يعمل بها لذلك ويكتب هو التعليق، فقد كان يخاف أن يطاله الشيب أو يتمكن منه الزمن..

وضحك التابعي على الزمن وعاش في خدعة طويلة، فقد استطاع أن ينكر من عمره عشر سنوات، وحصل على جواز سفر في الأربعينات أنقص فيه عمره عشرة سنوات كاملة، وتعامل مع الدنيا على هذا الأساس، وفي يوم وليلة أصبح التابعي ليس أحد كبار كتاب مصر والشرق العربي ولكنه ملك الورقة والقلم.

أما أسمهان فهي ملكة حقيقية كان لها "شنة ورنة.. كما يقولون" في جبل الدروز، وكان لها أحلام مع المخابرات البريطانية في أن يجعلوها شخصية اجتماعية مرموقة في لبنان، وحينما تجاهلتها بريطانيا اتجهت إلى الجنرال الفرنسي "كاترو" وكان ذلك في تلك الفترة التي كانت فيها سوريا ولندن مسرح صراع حقيقي بين عوامل وأهداف سياسية بعد الحرب العالمية الأولى.

ويقول "يوسف الحكيم" في كتابه "سوريا والانتداب الفرنسي" إن أسمهان فرش لها "الجنرال كاترو" قصراً خاصاً بين عاليه ويحمدون والتقى التابعي بأسمهان، ومن الوهلة الأولى ومن طريقة كلامها ومن هيئتها وملابسها وعيونها الجبلية قرر التابعي أن يتزوجها.

وكان غيوراً جداً.. كان التابعي في غيرته مجنوناً يهدد ويتوعد بالفراق وما أن ينهي شحنته حتى يقول أحلى كلام في الحب، وكانت هي في غيرتها غريبة إذا غارت اختفت يوماً أو اثنين عند أحد الأصدقاء أو الأقارب.

ومن غيرة التابعي اتباعه لطرق بوليسية؛ فقد دفع مبالغ كبيرة لكل الخادمات والوصيفات المحيطات بأسمهان حتى يعرف أخبارها ودفع ثمناً كبيراً.. كان يدفع للبواب ليعرف متى تخرج؟! ويدفع للخادمة لتوافيه بأسرارها، ولكن أسمهان التي كانت تلعب الكوتشينة مع رجال المخابرات الإنجليز والفرنسيين كانتتعرف كيف تختار خدمها.. وكانوا يقولون لها ما الذي يقولونه للتابعي ولغيره!!فقد كانت أسمهان امرأة ساحرة لها قدرة كبيرة على اجتذاب الرجال، وهي كثيرة الهمس إذا تحدثت فيتوهم الذي يقول.. ويرغي.. ويلت ويعجن!!

وكان ما تعمله أسمهان يجلب لها إعجاب المصريين من الرجال جداً؛ فهي هوائية تحب في الصباح وتكره في المساء.. تنام عندما يستيقظ الناس وتخرج من بيتها في نصف الليل ولها مزاج جداً، وقد رفضت دعوة ملكية من إحدى الأميرات لأنها طلبت منها أن تجانس الناس مقابل ٥٠٠ جنيها، ولم يكن معها في ذلك الوقت إلا ١٧/٥٠ قرش صاغ، وكان هؤلاء الناس كبارات مصر والشام ولكنها اعتذرت لأنها كما يقولون"قادرة" أي على عكس النموذج المصري وقتها "المنطوية" وإن كان كل شيء تغير الآن "وفي الوقت الذي كان الناس يتحدثون عن غرامها بالتابعي إذا بها تهرب

إلى غرام آخر وشخصية أكثر شهرة من التابعي. لقد اتصلت بأحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي.. تركت حفلة بها التابعي وادعت أنها مصابة بصداع وستذهب لمنزلها واتجهت لمنزل أحمد حسنين باشا.. ومتى؟! الساعة الرابعة صباحاً ورأى ذلك مصطفى أمين وحكاه لعلي أمين وقررا أن يبوظا هذه الجوازة فتقدما باستقالة من آخر ساعة إلى التابعي يقولون له إذا تزوج أسمهان يتركان له مجلة آخر ساعة وقال لهما طظ في آخر ساعة!! وطلبا المشورة من أم كلثوم لحماية التابعي وقالا لها ما رأيك تتزوجينه أنت؟! وضحكت!!

ووصل للتابعي الخبر بوثائق، ومات حبه بالسكتة القلبية، وسافر وحاول أن يتعلم التزحلق على الجليد وفشل ولكنه اشترى ملابس ومستلزمات التزحلق فلقد قرر أن يعرف كيف يتزحلق إذا أعطاه الحب صابونة ماركة أسمهان!!. أما ما وصله من وثائق فقد كان يثبت أن هناك حواراً عنيفاً وقع بين الملكة نازلي أم الملك فاروق وأحمد حسنين بسبب علاقته بأسمهان!! ولأن التابعي هو صاحب عبارة "أن انس المرأة.. بالمرأة" أو "اجعل حياتك منها كالكأس لا تراه ممتلئاً ولا تراه فارغاً" ومن هذه الفلسفة كتب عما عرف من النساء كتاب "بعض ما عرفت".

وكان من أروع ما كتب في آخر ساعة مجموعة مقالات عن قصته مع أسمهان قال فيها: إنها أميرة يجري في دمها الدم الأزرق وكان يحب أن يهزها بما لم تعتدعليه أن يضربها أن يمنعها من نزواتها، ولكنه كان يوافقها على ما ترضى عنه لأنه يحبها، ومن هذه العبارة كتب عنها مصطفى أمين

في كتابه "شخصيات لا تنسى" امرأة كانت تتمنى رجلاً يضربها ولكنهم جميعاً لم تطاوعهم كفوفهم!!

وكانت أسمهان خدعته ضحكت عليه وجعلته يهمل عمله، فهو يتابع أخبارها ولا يتابع أخبار الوزارة ويحرص على مقابلة المندوبين الذين يحملون أسرارها أكثر من حرصه على مقابلة مندوبي الجريدة والمحررين ولكنه الحب، ولكنها امرأة مختلفة فهي من برج القوس!!.

ومما يقال عن أسمهان أنها تعاونت مع "هتلر" في أثناء وجودها بمصر، ولذا فالأصابع تشير إلى اتهام المخابرات البريطانية بقتلها في حادث سقوط سيارتها في النيل وهي في طريقها لرأس البر، فقد ماتت وخرج السائق حياً وكانت تريد أن تذهب بالقطار وقال لها السائق كل التذاكر محجوزة وكان هذا غير صحيح وماتتفي ١٤ يوليو ١٩٤٤ قبل أن يكتمل آخر أفلامها مع يوسف وهبي "جنون الحب" ودخل نعشها فعلاً الأستوديو كجزء من الديكور!!

وقد صدر كتاب "أعلام الأدب والفن" لأدهم الجندي سنة ١٩٧١ تحدث فيه عن أسمهان وأوضح فيه أن علاقتها بأحمد حسنين باشا لم تكن حباً، بل غلباً، إنها أحد متطلبات التعامل مع الألمان "أن تحمل لهم أخبار السرايا" نفس الشيء الذي قيل عن كاميليا والملك فاروق، أما الشيء المبهر فهو تأكيده على أنها أحبت في حياتها التابعي فعلاً وبجنون ولا يزال التاريخ الخاص جداً فيه كثير من الحكايات عن الصحافة والفن كشفتين في فم.

أم كلثوم

فكروني إزاي.. هو أنا نسيتك؟!

(١) .. سر في حياة مصطفى أمين؟!

مصطفى أمين صاحب القلم الساحر والصحفي المخضرم.. أم كلثوم صاحبة الحنجرة الذهبية وكوكب الشرق.. حينما التقيا صنعا صداقه غريبة.. شفتان في فم الصحافة والفن!!

جاءت أم كلثوم من قرية "طماي الزهايرة" تاركة من خلفها عيدان الذرة وسنابل القمح الصفراء وقد غطت شهرتها أقاليم الوجه البحري حتى إن الشيخ زكريا أحمد ذهب ليسمعها في منزلها فلم يملك إلا أن يلحن لها قطعه غنائية، وقرر الوجيه عز الدين يكن بك، أن يحضر الفلاحة ذات الحنجرة الخاصة لإحياء ليلة في قصره بحلوان، وكانت هذه الفرصة التي تنتظرها.

وهناك على باب المحطة كان ينتظرها حنطور البيه، وعلى باب المحطة أيضاً كان الصحفي الداهية مصطفى أمين قد أرسل كاميرا وصحفياً ليكون مع هذه الظاهرة التي جاءت من الوجه البحري للعاصمة، وعاد الصحفي بصورة وقصة غريبة فما أن رآها عز الدين بك وعائلته في زيها الفلاحي البسيط حتى ثار ورفض أن تغني وفشلت كل المحاولات لتطردها العاصمة في أول لقاء بينهما!!

ويتعاطف مصطفى أمين مع الفلاحة القادمة ويشعر بجلسته الصحفية أن هذهالمرأة الممشوقة المختلفة سيكون لها مستقبل في الغناء وحينما يعرف بأنها من مواليد ٤ مايو سنة ١٩٠٤ يراهن فهي من مواليد برج الثور الذي يحكمه الزهرة والذي أصحابه كلهم قد خلقوا من أجل الفن.. إن لمصطفى أمين حسابات خاصة جداً وتلعب الصدفة والقصد دورها فيحدث مصطفى أمين، أحمد رامي الشاعر العائد حديثاً من باريس عن ذلك الصوت فيكون أفضل ثنائي غنائي "رامي/ أم كلثوم"ويظل وراءها حتى عام ١٩٤٦ حيث بدأت الصداقة رسمياً وبشكل مكثف..

ففي إحدى ليالي الخميس كانت أم كلثوم تحيي حفلاً خاصاً بأحد نوادي القاهرة وكان بالصدفة مصطفى أمين ضمن الحاضرين، لقد أصبح لا يترك حفلة لها في القاهرة إلا ويحضرها وفوجئ الجميع بمقدم الملك فاروق عندئذ ارتبكت أم كلثوم، ووجدمصطفى أمين نفسه على المسرح يطمئنها، وبالفعل واصلت الغناء حينما رأت مصطفى أمين يجلس بعد مصافحته للملك مع حاشيته، وغنت أم كلثوم وتألقت حتى أنها تجرأت وذكرت اسم الملك في الأغنية فبدلاً من قولها "يا ليلة العيد آنستينا" استبدلت بهذا المطلع.. "يا مجية الملك فرحتينا" فما كان من فاروق إلا أن نادى مصطفى أمين وطلب منه أن يطلع المسرح ويعلن أن الملك أنعم على أم كلثوم "بوسام الكمال للفنون" لتصبح من ذلك التاريخ صاحبة العصمة!!

وأصبح مصطفى أمين منذ هذا التاريخ صديق وفقيه أم كلثوم، حائطها الذيتلجأ إليه.. وقرينها الذي تستشيره كثيراً.. وحدث أن ضباط الفالوجا المحاصرين لم يجدوا سوى صوت أم كلثوم فأرسلوا لها رسالة يطلبون منها أن تغني لهم في حفلتها المذاعة "غلبت أصالح ف روحي" وكان الحفل سيقام بعد أيام قليلة، وكانت وصلات الحفل كلها محجوزة الوصلة الأولى لزوجة الأمير فيصل، والثانية لزوجة الملك الغازي وأم الملك فيصل الثاني، والثالثة لإحدى الأميرات المصريات.. بل أن الأغنية المختارة من ضباط وجنود الفالوجا لم تكن من بين أغاني الحفل وسألت مصطفى أمين وقال لها: أكبر نصر لك أن تكسبي الجيش!!وقالت له: قد يزعل.. وقبل أن تكمل قال لها مصطفى أمين: الوقت الآن يجعل الجيش هو الحصان الذي يجب ألا يزعل!!

واستدعت الفرقة الموسيقية وعملتبروفة لأغنية "غلبت أصالح ف روحي" وغنتها في بداية الحفلة "الوصلة الأولى" ثم أهدت لرجال الفالوجا أغنية جديدة لها معنى أعجب الرجال المعاصرين وهي"أنا ف انتظارك" فهي تريد لهم الخير والعودة قريباً.وكانت هذه النصيحة لها أثرها وبداية تعلق الجيش بأم كلثوم فما أن رجع رجال الفالوجا من الحصار حتى طلبوا أن يقابلوا "الست" ليشكروها.

وفي سنه ١٩٤٩ كانت الحفلة في فيلا أم كلثوم وكان مصطفى أمين معها يستقبل أبطال الفالوجا وأعد كل شي بدقة!! وفي هذه الحفلة رأت أم كلثوم عبد الناصر لأول مرة وتبادلا النظرات وكانت بداية لتعلق كبير بين

زعامة السياسة وزعامة الطرب! ويقول عنذلك مصطفى أمين "وبين الحين والحين كنت ألاحظ نظرات متبادلة بين أم كلثوم وعبد الناصر. ولم أستطع وقتها أن أترجم هذه النظرات في حينها، فربما كانت نظرات لقاء قادم ومصير مشترك بين زعيمين"

وحينما تغير الزمن وقبض على مصطفى أمين "في قضية سياسية في عصر عبد الناصر لم يستطع أحد أن يكلم عبد الناصر بخصوصه، حتى أن عبد الناصر فاتح عبد الوهاب بخصوص ذلك في حفل بمناسبة ٢٣ يوليو "عيد الثورة" فقال له: "أنا عايزك تغني كويس، رغم إني عارف إنك زعلان علشان مصطفى أمين"، ولكن عبد الوهاب قال: "أبداً يا فندم.. السيئ يلقى جزاءه ثم أضاف لم يكن صديقي إلا من مدة قليلة".

أما أم كلثوم فكان موقفها مختلفاً فقد جلست أكثر من مرة في جلساتخاصة مع عبد الحكيم عامر وعبد الناصر، وفي كل مرة كانت لا تضيع الفرصة فتفتح موضوع مصطفى أمين وتذكرهما بوطنيته وبأياديه الطاهرة وكيف أنه لم يدخل مليماً حراماً إلى أخبار اليوم حتى أنها استعملت تعبيراً رجالياً جداً مع عبد الناصر جعلته يشيح عنها بوجهه فقد قالت بالنسبة لمصطفى أمين: "أضمنه برقبتيبا ريس!!"

ولذا قال مصطفى أمين: عرفت الصداقة في حياتي، وأنا أؤمن بصداقة النساء فهن اللاتي وقفن معي.. كانت أم كلثوم بعشرة رجال، وكانت شادية أفضل من معظم الرجال؛ ففي السجن اعتمدت عليهما تماماً، وكانتا عند حسن الظن!!

فقد كتب إلى أم كلثوم يقول لها: أحتاج إلى مائتي جنيها فوراً، وأحب أن أنبهك أن مساعدتك لي قد تعرضك لوضع أموالك تحت الحراسة وأنه لن يتضايق إذا رفضت لأنه يقدر الضعف الإنساني والظروف المحيطة..وأنهى الرسالة بعبارة: إني قد أستطيع أن أرد المبلغ بعد عشر سنوات، وقد لا أستطيع أن أرده!!.

وأرسلت أم كلثوم خمسمائة جنيها وقالت إنها مستعدة أن ترسل حتى خمسة آلاف وقد فوجئ "مصطفى أمين" بطبيب السجن يقول له بأن أم كلثوم كلفته بأن يستمع لها يوم الخميس ففي قصيدتها الجديدة ثلاثة أبيات هدية لمصطفى أمين، وكانت قصيدتها "الأطلال" وسمع أم كلثوم تقول:

أعطني حريتي أطلق يديا   إنني أعطيت ما استبقيت شيئا
آه من قيدك؟ أدمى معصمي   لم أبقيه؟ وما أبقى عليا

ولهذا كتب الأستاذ مصطفى أمين في كتابه "شخصيات لا تنسى" تحت عنوان: "أم كلثوم.. الأخرى".. يقول:

- عرف الناس أم كلثوم، وأنا عرفت أم كلثوم الأخرى، عرفوا الأسطورة وعرفت الإنسانة، عرفوها بخيلة وعرفتها كريمة. عرفوها فوق المسرح والأضواء مسلطة عليها وصوتها يملأ الدنيا متعة وهناء. وعرفتها في غرفتها الصغيرة في الطابق العلوي من بيتها منزوية فوق كنبة صغيرة تبكي في صمت!!

وله الحق أن يقول أكثر من ذلك.. لماذا؟!.. فهي لم تنس تنظيمه حملتها معه خلف الزعيم عبد الناصر أيام النكسة وقتها جمعت الذهب لمصر وللمجهود الحربي. ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن وقعت أم كلثوم في غلطة عمرها فقد توجهت إلى منزل الرئيس السادات بالجيزة وكما يقول الصحفي حنفي المحلاوي في كتابه "عبد الناصر وأم كلثوم.. علاقة خاصة جدا" أنه في صالون الاستقبال حيث كانت موجودة السيدة جيهان السادات انطلقت أم كلثوم بصوتها المرح المشوب بالحزن ناسية بروتوكولات الرئاسة. "مبروك يا أبو الأنوار"

وكان لهذا الجملة وقع الصاعقة على وجه وجسد زوجة الرئيس السادات؛ فقالت لأم كلثوم في لهجة حازمة: "اسمه الرئيس محمد أنور السادات.. وتعلمي كيف تخاطبي الرؤساء!!"

وتكهرب الجو، وضاع أمل أم كلثوم في عرض أمر مصطفى أمين على الرئيس السادات، وعلى الرغم من الصراع الذي بدا واضحاً بين جيهان السادات وأم كلثوم منذ هذا الموقف إلا أن أم كلثوم من أجل عيون "مصطفى أمين" داست على كل مرارة في نفسها؛ ففي أحد الأيام صحبت أم كلثوم بنات الكاتب الكبير مصطفى أمين: رتيبة وصفية إلى بيت الرئيس السادات، وقابلت معهما السيدة جيهان، وقالت إنها مريضة ويزيد في مرضها أن يكون مصطفى أمين خلف القضبان في قضية هو مظلوم فيها، ووعدت جيهان السادات بعرض الأمر على الرئيس وأنها ستفعل كل ما

يجب حتى يفرج عن مصطفى أمين وأفرج عن مصطفى أمين بعد ١٣شهراً من الزيارة عام ١٩٧٤!!

وهذه العلاقة الخاصة بين أم كلثوم ومصطفى أمين جعلت الكثيرين يعتقدون أنه قد تزوجها في فتره من فترات حياته، وسأله البعض هذا السؤال؟! وأجاب مصطفى أمين: لم أتزوجها؟! لقد كنا أكثر من مجرد صديقين.. نلتقي كل ساعة.. بل كل دقيقة.. ولو من خلال التليفون!! وبقي السر.. ما معنى الإجابة.. وإلى ماذا يشير!!

وسار وراء تلك الأجابة ناقد وصحفى كبير هو " رجاء النقاش" وفى ٢٠٠٣ فجر قنبلة فى كتاب "التماثيل المكسورة" من بيروت قال فيه: تزوجها ..وعندى العقد العرفى واقوال سبعة من اقرباء ام كلثوم. ونشر عدة صور لمصطفى امين وثومة لا يمكن إلا أن تكون لزوجين.كأن يكون مصطفى بك بالبيجامة وثومة بجلابية منزلية، أو ان يكونا معا بالمطبخ.

وحين عاتبه البعض على كتابه واتهمه بالكذب عاد لمصر ونشر فى الاهرام مقالة فى ٢٠٠٥ بنفس المعنى مابينهما زواج عرفى على سنة الله ورسوله وبعلم اهلها،وقال فى نهايتها وعلى المعترض اللجؤ للقضاء.

وبدهاء ودبلوماسية من "سناء البيسى" أصدرت عددا عن "أم كلثوم" بنصف الدنيا٢٠٠٦ لم تقل فيه كلمة عن الزواج ولكن نشرت عدة صور لأم كلثوم ومن بينها صورها مع مصطفى امين، والصور اوضح وعددها اوفر وفى مجلة لا كتاب،وفى مصر لا لبنان.



أم كلثوم
فكروني إزاي.. هو أنا نسيتك؟!

(٢) أيها الشاعر: أحمد رامي قل لنا علامات الهوى!!

اللي حب ولا.....؟!

الحب له علامات مميزة تبدو في سلوك المحبين وتظهر في تصرفاتهم، وكثيراً ما تفضح سرهم وتكشف مشاعرهم أمام الناس حتى ولو حاولوا إخفاء هذه المشاعر في قلوبهم ونفوسهم..والكاتب الأندلسي القديم ابن حزم يصف في كتابه "طوق الحمامة" هذه العلامات؛

فيقول إن أولها إدمان النظر، وانتقال العين حيث ينتقل المحبوب، والميل حيث يميل، والإقبال بالحديث عليه والإنصات له، واستغراب كل ما يأتي به وكأنه عين المحال، وأخرق للعادات، وتصديقه وإن كذب.. وموافقته وإن ظلم.. والشهادة له وإن جار..

ومن هذه العلامات أيضاً السير نحو المكان الذي يوجد فيه وتعمد الجلوس بقربه والدنو منه، والاستهانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقته، والتباطؤ في المشي عند القيام عنه..

ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية محبوبه أو عند سماع اسمه فجأة، وتعمد استدعاءه لاسمه، والتلذذ بالكلام عن أخباره، وحب الوحدة، والأنس بالانفراد، وحب أهل المحبوب وقرابته وخاصته حتى ليكونوا أحظى لديه من أهله ونفسه..والبكاء من علامات المحب.. ومن المحبين من هو غزير الدمع.. هاملالشئون.. تجيشة عينه.. وتحضره عبراته متى شاء.. ومنهم جامد العين عديم الدمع..ومن آياته مراعاة المحب لمحبوبه، وحفظه لكل ما يقع منه، وبحثه عن أخباره حتى لا تسقط عينه عنه دقيقة.. وتتبعه لحركاته.. وتعمد لمس يده عند المحادثة.. ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة.. وشرب فضلة ما أبقى في الإناء.. وتحري المكان الذي يقابله فيه!!

وجمع أحمد رامي كل هذه المعاني ووضعها في أغان لأم كلثوم منذ أول قصيدة تركها لأستاذه الشيخ أبو العلا محمد، وغنتها.

الحب تفضحه عيونه وتنم عن وجده شئونه
إن تكتمنا الهوى والداء أقتله دفينه

رق الحبيب وواعدني – سهران لوحدي أناجي طيفك – هجرتك يمكن أنسى هواك – غلبت أصالح في روحي – يا مسهرني – لسه فاكر

ويمكن تتبع قصة حب رامي لأم كلثوم من تتبع أغانيها، فقد حدث أن سافرت أم كلثوم إلى رأس البر لقضاء فصل الصيف، ثم عادت وكتب لها رامي أغنية "شرق القلب بعد طول الغياب" وأغنية "قلبي عرف معنى الأشواق" وفي أيام سعادته بهذاالحب كتب "حسن طبع اللي فتني علم

القلب الغرام وروحي وروحك في امتزاج" وعندما سافرت أم كلثوم إلى الخارج للمرة الأولى كتب أغنية "البعد علمني السهر".

وكانت أم كلثوم في بعض الأحيان هي التي تعطي الشاعر أحمد رامي وغيره من الشعراء موضوع الأغنية، وذات يوم أحبت أم كلثوم ووصل بها الحب إلى قمة سعادتها فأعطت رامي فكرة أغنية "افرح يا قلبي"! وكان يحدث في بعض الأحيان أن يكون رامي في قمة التعاسة والشقاء، فكان يعترض على موضوع الأغنية السعيدة "الدنيا حلوة لأنك فيها أشجارها بترقص.. أرضها بتغني!.." واحتج رامي وقال: "أنا شايف الدنيا سوده.. أشجارها بتلطم.. وأرضها بتبكي!" ورفض رامي أن ينظم القصيدة المطلوبة، وخاصمته أم كلثوم وأصر على ألا يجعل الدنيا تضحك وقلبه يبكي!

وعندما قرر رامي أن يتزوج ذهب إلى أم كلثوم وقال لها إنه قرر الزواج، وقالت أم كلثوم إنها تريد أن تحضر حفلة زواجه وتغني فيها، واعترض أحمد رامي، وقال إن أهل العروس كلهم يعرفون أنني أحبك، وإذا حضرت الفرح سيتحول إلى مأتم!

وكانت أم كلثوم أول من زار عروسه في منزل الزوجية، وعندما رزق بابنه الأول محمد ذهبت أم كلثوم وغنت له في السبوع، وحدث بعد ذلك أن نظم رامي أغنية "جددت حبك ليه.. بعد الفؤاد ما ارتاح"، وذهب رامي كعادته في يوم الخميس ليسمع أم كلثوم، وهناك غنت أم كلثوم للمرة الأولى فأطربت وأبدعت.وكانت السيدة "عطاالله" زوجة رامي

تستمع إلى الإذاعة، وإذا بها تسمع أم كلثوم تغني جددت حبك ليه!!ولم يكن رامي أخبر زوجته بهذه القصيدة، وتحركت الغيرة في قلبها وتصورت أن رامي عاد إلى حب أم كلثوم بعد انقطاع.ويبدو أن زوجته منذ اليوم الأول شعرت بأنها زوجة وليست حبيبة فهي في العشرين حينما جاء إليها رامي وهو في الأربعين وقالوا لها منذ اليوم الأول "حتعملي إيه في أم كلثوم" وقالت: "ماذا ستفعل ملايين النساء مع أزواجهن إن كل البلد تعشق أم كلثوم"، ولكنها كانت تعلم أن كل الرجال "كوم" ورامي "كوم ثاني".

وفي ليلة الزفاف حضرت أم كلثوم وغنت من ألحان القصبجي:

يا نجم مالك حيران بين الغمام والليل بادي

فضلت وياك سهران والروح على البعد تناجي

ولكن الزوجة بعد فترة قصيرة لم تحتمل هذا الشاعر القلق التوتر الذي يقوم أثناء الليل ليدون بيتا من الشعر، أو ليقرأ شيئاً أو لأرق وقالت له: "لكل منا حجرة نوم خاصة".وكان هذا غريباً أن يكون شاعر الشباب له حجرة نوم بلا زوجة؟! رغم أنه هو الذي علمنا:

"وعندما نحب.. نرى من نحب في كل الأماكن.. في كل الأشياء.. في كلمات الأغاني.. وقصائد الشعر.. وأمواج البحر.. وتذاكر السفر.. وأطباق الطعام.. ورائحة العطر.. وإعلانات الثياب.. وأوراق الشجر.. وأفلام السينما.. وفناجين القهوة.. وكراسات الرسم.. ودخان السجائر.وعندما تختفي صورة من تحب من هذه الأشياء.. يكون الحب في

ذمة التاريخ.. يكون قد دخل الثلاجة.. إن الانتقال من النار إلى الجليد يعني أن الحب يمكن أن يموت.. وعلامات الموت أن يفقد من يحب القدرة على الجنون.. على الحنين.. أن يسترد الوعي.. فيرى الأشياء منفصلة عمن أحب."

وعندما رأى أم كلثوم لأول مرة لم يعجبه شكلها، فوجئ بها تضع العقال فوق رأسها وترتدي الجبة وتضع على بطنها حزاماً، وكان الملحن الشيخ أبو العلا هو الذي يقدمها إليه.. وهمس في أذنه: أعوذ بالله! هذه فقيه.. وليست مطربة! ولكنه ما كاد يتحدث إليها حتى فتن بخفة روحها وذكائها، وعندما سمعها تغني وجد نفسه يغني لها وبعد أن انتهت من الوصلة ذهب إليها وقال لها: "هذه أول مرة أطرب فيها لمغن بعد الشيخ سلامة حجازي".

وأعطى رامي أم كلثوم أول أغنية نظمها وكانت أغنية "خايف يكون حبك لي شفقة علي".. ولم تكن موجهة لأم كلثوم فقد نظمها عام ١٩٢٤ في جارته الفرنسيةالحسناء التي لم تكن تعرف العربية وكانت أمه تدعو له أن يتوب الله عليه من الشعر؟!.

ولكن الله لم يتب على رامي من الشعر فقد عرف أم كلثوم، وعرف من اليوم الأول أنها ملهمته، وكان حبه لها عجيباً، عفيفاً، نظيفاً بريئاً! كان حبه أشبه بالتقديس، مكث خمسين سنة يتحدث عنها، كأنها بين ذراعيه. وكانت كلمة الحب لا تكفي لتعبر عن حقيقة المشاعر الحارة التي كانت بين أم كلثوم ورامي. كان يتحدث إليها في التليفون كل يوم مرتين،

مرة في الصباح ومرة في المساء، وكانت خصصت له يوم الاثنين من كل أسبوع وهو يوم إجازة دار الكتب التي كان موظفاًبها، لتكون يومه دون سواه، في ذاك اليوم لا تقابل أم كلثوم أحداً سوى أحمد رامي، له الصباح والظهر والعصر والمساء، وكان الحديث مزيجاً من الحب والأدب والشعر والضحك، وقد قال مرة: أنه يحب أم كلثوم كما يحب الهرم، لم يلمسه، ولم يصعد إليه ولم يدخل فيه، ولكنه كان يشعر بعظمته وشموخه والفن العجيب الذي صنعه.. هل سمعت عن رجل تزوج الهرم أو تزوج نهر النيل؟.

وكانت قيمة حبه لأم كلثوم أنه كان حباً بلا غرض وبلا مصلحة، وأذكر أن أم كلثوم قالت: أن الشاعر أحمد رامي مكث عدة سنوات يقدم لها قصائده وأغانيه مجاناً دون أن يتقاضى ثمناً، وقالت له ذات يوم: إنك مجنون لأنك ترفض أن تأخذ ثمن أغانيك.. قال رامي: نعم أنا مجنون بحبك، والمجانين لا يتقاضون ثمن جنونهم، هل سمعت أن قيساً أخذ من ليلى ثمن أشعاره التي تغني بها؟.. قالت أم كلثوم: لكن لن تأخذ مني مليماً.. شركة الأسطوانات هي التي ستدفع أجرك، وعندئذ فقط قبلرامي أن يأخذ أجراً عن أغانيه التي كان من الممكن أن تدر عليه ألوف الجنيهات..

فرامي هو الذي جعلنا نعتقد أن "الحب بدون أمل أسمى معاني الغرام" فأم كلثوم أرادت أن يكون شاعرها، لا أن يكون حبيبها فأوهمنا هو وفريد الأطرش بأن الفاشل في الحب هو الحبيب الخالد أو الحبيب المزمن؛ فحول فشله إلى حكمة وعجزه إلى استشهاد، وقصر ذيله إلى فضيلة!!فالحب اندماج كامل بين الروح والجسد والحياة، وهذا الاندماج

حالة.. أو حقيقة.. وليس تعريفاً للحب.. فلا تعريف للحب.. فالحب لا يخرج من الكتب أو القواميس أو الموسوعات.. الحب لا تصنعه إلا التجارب..

وعن ذلك يقول الشاعر نزار قباني: "إن أم كلثوم لم تغن له إلا قصيدة واحدة سياسية هي "أصبح عندي الآن بندقية"، ولكنه قدم لها قصيدة في السبعينات كان عنوانها "اغضب.. كما تشاء" وهذا مقطع من القصيدة:

اغضب كما تشاء...

واجرح أحاسيسي كما تشاء

حطم أواني الزهر والمرايا

هدد بحب امرأة سوايا

فكل ما تقوله سواء

وكل ما تفعله سواء

فأنت كالأطفال، يا حبيبي

نحبهم.. مهما أساءوا لنا

اذهب.. إذا أتعبك البقاء

فالأرض فيها العطر.. والنساء

وعندما تريد أن تراني

وعندما تحتاج كالطفل إلى حناني

فعد إلى قلبي متى تشاء..

وأنت عندي الأرض والسماء

لابد أن تعود ذات يوم

وقد عرفت.. ما هو الوفاء

قال نزار قباني للشاعر أحمد الشهاوي في حوار معه في مجلة "نصف الدنيا":

كنت أقرأ القصيدة للسيدة أم كلثوم في فيلتها في الزمالك، وكانت تصغي إلي بذوق شعري رهيف، وعقل مفتوح..وعندما فرغت من قراءة القصيدة، قالت لي السيدة العظيمة:

- قصيدتك جميلة جداً، يا نزار، ولكنها بكل أسف تعارض مبادئي ومواقفي، ونظرتي إلى الحب.

وأضافت بكل هدوء ومحبة:

- إن أم كلثوم لا تسمح لنفسها، ولا تسمح لها تقاليدها وقيمها أن تقول للرجل الذي تحبه: اذهب شمالاً ويميناً، وشرقاً وغرباً، وادخل في علاقات غرامية مع ألف امرأة وامرأة، ثم متى تعبت.. "فعد إلى

قلبي متى تشاء" لأنني حاضرة للصفح عنك في أية لحظة. هذا موقف لا أقبله _ يا نزار _ لأنه يتناقض مع ما أؤمن به، فأرجو أن تفهم وجهة نظري.

وقال نزار للشهاوي:

– والحقيقة أنني لم أتضايق من كلمات السيدة أم كلثوم، بل استمعت إليها باحترام وتقدير كبيرين لرأيها، وتاريخها العريق.

ولكن الذي حدث فعلاً أن نزار قباني ضاق صدره، وقال لها:

– التجارب الشعرية مختلفة، وأنا لست أحمد رامي الذي يحب امرأة ولا ينالها، لست هذا الخائب!! بل أنا أحب كل يوم.. وأجدد حبي كل يوم.. لماذا أوقف دقات قلبي ثم أن للحبقانونه يا ست!!

ولكن أم كلثوم قالت له إن الشاعر محمود درويش قال من لم يستفد من نزار قباني فليرفع إصبعه.. وها أنا أفعل!!

ولكن الكاتب الصديق مصطفى أمين يقول يمكن أن تكون أم كلثوم أحبت رامي وهناك عدة حوادث تؤكد ذلك؟!

وكانت أم كلثوم لا تعرف أن هذا الشاعر الذي تتغنى الدنيا بأغانيه بقي في الدرجة الخامسة ١٩ سنة! ولما علمت بذلك ذهبت بنفسها إلى وزير المعارف وقالت له:

– كم تتصور مرتب شاعر الشباب الذي يردد الملايين أغانيه؟

قال وزير المعارف:

- طبعاً هو في الدرجة الأولى

قالت أم كلثوم:

- إنه في الدرجة الخامسة فقط.

وأمر الوزير بترقية رامي إلى الدرجة الرابعة! وقد رقي رامي إلى الدرجة الرابعة سنة ١٩٤٣، وأحيل إلى المعاش عندما بلغ الستين، وعلمت أم كلثوم أن معاشه لا يتجاوز سوى بضعة جنيهات، فذهبت إلى رئيس الوزراء وطلبت أن يعين أحمد رامي مستشاراً في الإذاعة حدث كل هذا دون أن تخبره أم كلثوم أنها هي التي طالبت بإنصافه..

وقد يدهش هذا الجيل إذا علم أن رامي كان في شبابه شاباً رائع الجمال، ولكنه أصيب بمرض الجدري فشوه وجهه، ولم يؤثر هذا الحادث على علاقة أم كلثوم برامي، بل زادها اهتماماً به، وإن كان هذا الحادث قد جعله ينقطع عن زيارة أم كلثوم، ولكنها كانت تزوره في بيته وتحاول إخراجه من عزلته، وتؤكد له أنه لا يزال أحمد رامي الوسيم رغم ما حدث في وجهه من تشويه.

***

الأنثى الموهوبة تنتقم لحرمانها الطويل!

في صالون مي.. صراع القلب والعقل!!

الحب يفسد الجنس.. الجنس يفسد الحب.. الطريق الذي نعتقد أنه سليم في العلاقات الإنسانية ليس سليماً فلا يوجد حب بلا جنس؟! ولا يوجد جنس ليس فيه حب!!

ولكن السماء مع الحب ضد الجنس، والشيطان مع الجنس ضد الحب.. هكذا تقول كل الأديان والأساطير والفلسفات وحكاية مدينة "سودوم" ومدينة "عمورية" في التوراة، حيث خسف الله بالمدينتين بسبب انحلال أهلها من قوم لوط، وقصة التفاحة وحواء وآدم، وحكاية الملك أوربا ورواية يوسف الصديق وزليخة ..كيف كلها تقول نفس المعنى، ولا توجد في الأديان قصة لزواج سعيد، ولا في التوراة ولا الإنجيل ولا القرآن.. لا قصة بالتفصيل، ولا نجد إلا قصة النبي إبراهيم وزوجتيه: سارة وهاجر.. فماذا فعل بهما!!

وحينما يأتي الحديث عن الزواج لا يكون هناك كلام عن الحب لا هيت ولا هيت ولا هيت ولا هئت وإنما عن النسل؟! وتكون المشكلة هي هذا النسل كانت مشكلة عند هاجر وعند زكريا ولا يزال دعاء العاقرات والعاقرين هو دعاء زكريا"ربي لا تذرنى فرداً".. والمسيحية لا ترفض

الزواج، ولكنها لا تعتبره الطريقة المثلى في الحياة عين في الجنة على تسامي الروح وعين في النار خوف اشتعال الجنس في الجسد.

هذه فلسفة أو جزء من فلسفة، أو فلسفة أبدأ بها وأغار عليها وأنهاها الشاعر "جبران خليل جبران" أشهر وأغرب شعراء المهجر من اللبنانيين أو الشوام كما كان يطلق عليهم، ولذا فإنه يقول في الحب:

والحب إن قادت الأجسام مركبة   وإلى فراش من اللذات ينتحر
والحب في الروح لا في الجسم لفرقة   كالخمر للوحي ولا للسكر تنعصر

فقد عاش جبران ثماني وأربعين سنة من "١٩٣١ _ ١٨٨٣" وكان متأثراً حتى سنة ١٩١٢ بأدب القصة، وكتب عرائس الروح، والأرواح المتمردة، والأجنحة المتكسرة، متأثراً بالتوراة والروحانية المسيحية وإيمانه بالروحانيات بل التناسخ فيالأرواح. ويظهر ذلك من عناوين كتبه التالية: يسوع ابن الإنسان، النبي، حديقة النبي، آلهة الأرض.

وفي مرحلة صراعه هذه بين القلب والعقل.. تقابل مع إرهاصة أنثوية أخرى هي "مي زيادة" تلك الأديبة الكبيرة التي تركت بصماتها على الحياة الفكرية في مصر، وتأثر بها أدباء عصرها وكان صالونها الأدبي أشهر صالون، وكان يحج إليه العديد من كبار الكتاب وقتها.

والذي يدرس حياة هذه الأديبة الكبيرة يعرف أثر طفولتها على حياتها؛ فقد ولدت في "الناصرة" بفلسطين وأدخلها والدها مدرسة للراهبات في لبنان، وهناك كانت تشعر بأنها وحيدة وغريبة وسط جدران

صماء بكماء، وأن أسوار هذه المدرسة تعزلها عن العالم وعن الطبيعة، وطبيعة لبنان الخلابة.. وجعلت كل همها في الدراسة قراءة الآداب العالمية، وشعرت أن كتب الأدب تحملها إلى أعماق أعماقها، وزادت من هذه الوحدة وفاة شقيقها الوحيد، فشعرت بحزن عميق في نفسها، عبرت عنه بقولها عندما امتدت بها الأيام في إحدى ترجماتها لأحد كتب "ماكس مولر" كتبت في الكتاب:

"إلى العينين اللتين أطبقهما الموت قبل أن الثمهما.. إلى الابتسامة التي لا أعرف منها إلا خيالاً.. إلى الاسم العذب الذي لا تهمس به شفتاي دون أن تملأ عيني الدموع ، إلى الطفل الذي رحل إلى خالقه، ويتم في عاطفة الحب الأخرى فحرمني من حنو الأخ وقبلته وابتسامته ودمعته. إلى أخي الوحيد الذي تقاسمه الأثير والثرى!"

هذه النفس التي تألبت عليها وحشة الوحدة، وآلام فراق الأخ الوحيد، أضافت الأيام إلى هذين البعدين بعداً ثالثاً، وهو الغربة التي شعرت بها عندما جاءت مع والدها إلى مصر الذي جاءها ليعمل في الصحافة. وكان اللقاء غريباً.. كان على ورقة بيضاء عليها طابع بريد تحمل آهات وثورة وأفكار هذين الكائنين قمة التمزق في العقل والقلب بين الموجود والكائن والحلم والأمل، ولذا لم يكن عجيباً أن يكون "جبران خليل جبران" هو حب مي زيادة الكبير أو هو غرامها الراسخ رغم كل من أحاطوا بها وأحبوها أو حاولوا ذلك –كالعقاد – كان حباً غريباً حياته كلها إحدى وأربعين رسالة بينهما، ولكن كل منهما كان يعرف ويدرك

ماهية الآخر تماماً ويظهر ذلك من القضايا الفكرية والاجتماعية والأدبية التي كانت بينهما.

وقد لعبت "مي زيادة" في حياة جبران عن طريق الرسائل بعدة أشياء:

(١) جعلته يسترد جنسيته اللبنانية، ويسعى لذلك بدأب بعد أن كان هاجر إلى بوسطن سنة ١٨٩٤ وحصل على الجنسية الإنجليزية فقد كانت تحلم أن تتزوج حبيباً لبنانياً!!.

(٢) جعلته ينقلب على حبه للروح إلى إيمانه بالحب المتكامل لحبيبه الروح والجسد، ولكنه كان عذرياً حتى في المراحل التالية في شعره.

وله عبارة جميلة: الحب في الرواح/ كخمرة في الكأس/ ما بان منها ماء/ وما خفي أنفاس

(٣) قرر أن يخرج من شرنقة الشرق وبخاصة تأثره بالتوراة إلى الأفكار الغربية واستقر عند نيتشة

أرسل إليها مثلاً خطاباً طويلاً يبثها أشواقه وأحلامه وآماله، ويقول فيه:

"أنا ضباب يا "مي".. أنا ضباب يغمر الأشياء، ولكنه لا يتحد وإياها أنا ضباب لم ينعقد قطراً.. أنا ضباب وفي الضباب وحدتي، وفيه هو انفرادي ووحشتي، وفيه جوعي وعطشي، ومصيبتي.. هل الضباب وهو

حقيقي يشوق إلى لقاء ضباب آخر في الفضاء، ويتشوق إلى استماع قائل يقول: "لست وحدك، نحن اثنان أنا أعرف من أنت؟"

أخبريني يا "مي": أفي ربوعكم من يقدر ويريد أن يقول لي: أنا ضباب آخر أيها الضباب، فتعال نخيم على الجبال، وفي الأودية، تعال نسير بين الأشجار وفوقها تعال نغمر الصخور المتعالية تعال ندخل معاً إلى قلوب المخلوقات وخلاياها، تعال نطوف في تلك الأماكن المنيعة غير المعروفة. قولي يا "مي": أيوجد في ربوعكم من يريد، ويقدر أن يقول لي ولو كلمة واحدة من هذه الكلمات!!..

وتقرأ "مي" هذا الخطاب، وتهتز أعماقها وترى في "جبران" الإنسان الذي سوف يحملها على جواد أبيض نحو تحقيق أحلامها.. وكتبت إليه:

عزيزي جبران:

أريد أن تساعدني وتحميني، وتبعد عني الأذى ليس بالروح فقط، بل بالجسد أيضاً، أنت الغريب الذي كنت لي بداهة وعلى الرغم منك أباً، وأخاً ورفيقاً وصديقاً وكنت لك أنا الغريبة بداهة وعلى الرغم مني أماً وأختاً ورفيقة وصديقة.

عبارة "الجسد" في هذه الرسالة هزت كثيراً من النقاد، ولا أحد يدري معناها؟ فهي كانت تريد أن تحيا وتتذوق فنون الأدب الرفيع وطلب منها الزواج كثير من فطاحل الأدب: ولي الدين يكن وشبلي شميل، وعرض

عليها الغرام الحر بعضهم، ودخلت فى علاقة ممتدة مع العقاد، ولكنها كانت فيلسوفة الصداقة بينهم جميعاً. أما قلبها فقد هام بعيداً بذلك الشاعر الذي تتبادل معه الرسائل التي تعد من أروع ما كتب في الأدب العربي.

ولكن العقاد كتب عنها في روايته أو قصته "سارة" وادعى أنها كانت تهتم أكثر وتحرض عليه أكثر، ولكنه كان يكرر "كانت سارة الجسد، وكانت مي الروح" فكيف فعلتها وكتبتها وفي رسالة إلى شاعرها جبران؟! إنه الحب؟! بل الحب الغريب!! أهذه هي الرومانسية أو الأفلاطونية أم أنها أسطورة مي زيادة، بل إنه من المعروف أنها فسخت الخطوبة من شاب ثري لأنها قالت عبارة: "أختار شريك حياتي كما يهوى القلب والعقل لا كما تهوى المصلحة!!"

ولكن الغريب أن هذه العقلية المختلفة المتمردة أصابها الجنون وكانت ترى في أخريات حياتها تهذي، ولطاهر الطناحي كتاب "أطياف من حياة مي" عن أخريات أيامها وضياعها جسداً وعقلاً؛ فهل فعل ذلك فيها صالونها؟.. هل هي لعنة المرأة الحرة الصريحة التي لا يمكن أن يفهمها أحد؟.. لقد كانت في حوار مع الجميع؛ فهي امرأة للكل وليست امرأة لأحد، ولا حتى لنفسها إنها تخرج مع العقاد وتراسله وتراه ولكنها لا تحبه، وتحب جبران وتعيش معه على الورق الأبيض ولكنها لا تراه ولا تلمسه ولا تسافر إليه..

ويقول عنها أنيس منصور "إنها أقرب إلى التي غرقت في حوض من الشمبانيا، الكل فتحوا الزجاجات فصبوها على رأسها وليس في حلقها، ثم وضعوها بالقرب من النار، ولما ماتت استراح الجميع لأنها لم تكن لواحد منهم"..

فكان حرمان الجميع منها نوعاً من العدل ولكنه العدل العنيف هل ظلموها.. هل ظلمت نفسها؟! هل كان جنونها في النهاية كمن حاول أن يمشي على الحبل فاختل توازنه فسقط، وكان الأسف على سقوطه معادلاً للإعجاب بتوازنه على الحبل قبل أن يسقط؟!

وتقول الدكتورة "إجلال" المتخصصة في الهياج الجنسي عند مرضى الأمراض العقلية:

"مي زيادة، إنها تشبه النبي إبراهيم دخلت النار، نار الرجل ولم تحرقها كانت برداً وسلاماً

عليها، ولكنها لأنها امرأة وليست نبية لم تصدق ذلك فاختل عقلها.. جنت أفضل امرأة!!"

ولكن مي زيادة ولدت سنه ١٨٧٦ وماتت سنة ١٩٤١ أي عن عمر يبلغ ٥٥ سنة أي أنها عاشت بعد موت جبران عشر سنوات، ثم أنها علمت بتعلقه بأكثر من شاعرة وأديبة في المهجر قبل موته بخمس سنوات أخرى.. فهل بقى حبها؟ هل جبران هو الذي جننها أم صالونها الأدبي؟..

سؤال آخر.. يجيب على السؤال أناس كثيرون: فمثلاً الأستاذ المرحوم حسن أحمد حسن – المدرس بكلية الفنون الجميلة – رسمها جعلها تنام على الأقلام، أسنة الأقلام كفقراء الهنود حينما ينامون على المسامير أي أنه جعل الجميع مشتركاً في تعذيبها وهو يقول عنها: إنها المرأة الوحيدة التي أحبها العقاد واحترمها وهي التي قالت له: لا أول الأمر، وقال لها لا.. وبعد ذلك!!

أما أنيس منصور ففي كتابه الموسوعة في "صالون العقاد كان لنا أيام" يفلسف الأمر ويرى أن مي زيادة فتاة شديدة الحساسية ومضطربة ومتناقضة وتعشق التعبيرات الجميلة فتصيب وتخيب ولكنها ليست أديبة كبيرة، ولا هي مفكرة، وإنما كان صالونها ضوءًا في سماء مصر وكانت شخصيتها أشبه بملكات النحل حام حولها الفراش الفكري وجرى إليها دبابير الأدب والفن ولكنها لم تكن قوية كملكات النحل لتختار أقوى الذكور، ولكنها اختارت أبعدهم عنها، ولم تكن ضوءاً لإحراق الفرش فأحمد الفرش الضوء أحبت شاعراً غريباً مثلها، مريضاً مثلها جبران خليل جبران.. كانت تسأله أن يعد لها دقات قلبه وعدد سجائره.

أما أدباء مصر ومفكروها فكانت تتحدث إليهم وتجاملهم، وتسلط عليهم غريزة المرأة، ويذهب كل واحد إلى بيته ليبعث لها برسالة خاصة شديدة الخدر يكتب فيها أدبه وليس حبه يكتب فيها ما لم يقل وما لم تقل. فمثلاً العقاد كتب عنها عده قصائد، ومصطفى صادق الرافعي سود لها كتاب "السحاب الأحمر" و"طرق الورد" و"رسائل الأحزان".. ولم

يفعل ذلك جبران. لم يكتب قصيدة اسمها "مي زيادة"، مع أنه كتب عن: ابن سينا والغزالي وجرجي زيدان مثلاً..

فهل كانت مي زيادة غانية تتحدث في الأدب أو أديبة تعرف الفجور.. إنها لا هذا ولا ذلك، وإنما أوقعتها الأقدار في أوكار الذئب الفكري للرجل الشرقي لقد حاول أن يجرب معها الجميع... الفيلسوف لطفي السيد أرسل لها خطاباً: إنني طماع ولكن عذري أنني صادق في الإحساس" أي يريد أن يقول لها إنه معجب بها أو يحبها أو يشتهيها، وطالما أنه صادق فهذا يكفي لأن يحصل على ما يريد.. يا سلام يا فيلسوف؟!

وطه حسين جرب معها، طلب منها أن تقابله فاعتذرت، ولكنه أصر، وقالت له: "يقولون في الإسلام أن المرأة والرجل الغريبان الشيطان ثالثهما"؛ فقال لها: "وهل نحن غريبان؟" فقالت: "في المسيحية لا تجلس المرأة منفردة إلا إلى القسيس"؛ فقال لها: "سيدتي.. أنت تطلبين المستحيل"، وانتهى الحديث، وانقطع عن صالونها طه حسين!!

ولكنها رأت العقاد، وجلست إليه، وزارته في منزله، وأهدت إليه أكثر من هدية، ولم تستعمل معه ما يقوله الإسلام، ولا تعاليم المسيحية، ولكنها تطلب منه فقط الحذر الشديد؛ فالرسائل تكاد تكون رمزية تحتاج إلى شيفرة. واللقاء يكاد يكون بخطة بوليسية موضوعة بخبرة، فقد كان هذا طابع العقاد وكانت هي تحب ذلك، ولكنها تجرأت حينما تجرأ عليها

مصطفى صادق الرافعي، وكان حجة في الأدب وصناعة الكلام، هامت بما يقول، فاعتقد أنها هامت به، وكادت أن تطلب له البوليس!!

ولكن "مي زيادة" اعترفت لطاهر الطناحي بحبها لجبران، فهل هذا الاعتراف لأنهم تركوها وحدها بعد موت حبيبها وأمها؟.

فمن المؤكد أنها أحبت الشاعر جبران خليل جبران، ولكن كل هؤلاء المترددين على صالونها لم يعرفوا ذلك، بل أننا لم نعرف إلا بعد أن ماتت، ربما كنا عرفنا أكثر لو أن رسائلها قد بقيت دون أن تحرقها؛ فقد دخلت مستشفى العصفورية "الأمراض العقلية في لبنان" وكان جنونها كاملا في القاهرة تسير في الشوارع تحمل الخضراوات والملابس، ثم إنها أرجعت الخطابات التي بعث بها المعجبون بها إلى أصحابها، ثم أنها أحرقت كل رسائل العشاق لها.

ولا يزال صوت عبد الوهاب وأغنية: "كلنا نحب القمر والقمر بيحب مين.. حظنا منه النظر والنظر راح يرضي مين".. هذه الكلمات تنطبق على الآنسة مي زيادة؛ فالعقاد هو الذي وصفها بذلك، وهو الذي قال عنها: "رحم الله مي زيادة كانت حصناً محاطاً بخندق أي أنها بعيدة ومنيعة"..

أن تحب فهذا بعض الشيء فقد أحبت العقاد في وقت زهد فيها فكان بعض الشيء.. أن تحب وأن تحب فهذا كل شيء.. كان كل شيء مع جبران ولكنه على الورق، نوع من الحب الأبيض بالقلم والسطور!!

***

أنا لم أقتل الصحفي عبد المجيد.. هو الذي قتل نفسه!!

"منيرة المهدية"

"يا بلح زغلول يا حليوة يا بلح، عليك بنادي في كل نادي، يا بلح يا حليوة يا بلح"

في أثناء ثورة ١٩١٩ أصدر القائد العام البريطاني أمراً عسكرياً بسجن كل من يذكر اسم زعيم الثورة سعد زغلول ستة أشهر مع الشغل وجلده عشرين جلدة، وهنا غنت منيرة المهدية أغنيتها المشهورة "يا بلح زغلول يا حليوة يا بلح، عليك بنادي في كل نادي، يا بلح يا حليوة يا بلح" وانتشرت الأغنية، وأصبحت على لسان النساء والرجال والباشوات والفلاحين حتى تحولت إلى ما يشبه النشيد الوطني تحدياً الأمر قائد جيوش الاحتلال! والمعنى أن المهم الرمز، وزغلول موجود.. سعد موجود..

وفي مذكرات كل من: عبد الخالق ثروت باشا، وإسماعيل صديقي باشا ما يفيد أنهما كانا يترددان على الفنانة منيرة المهدية!!ثم أن منيرة المهدية لها أغان مشهورة "أسمر ملك روحي" و"عصفوري يامة عصفوري" وهي قادرة على غناء أغان صعبة لسيد درويش وداود حسني، وهي أول من صرف على المسرح، وألف فرقة مسرحية مثلت على مسرح "بريتانيا"

روايات: "كلها يومين" لحنها سيد درويش، و"كليوباترا" ولحنها سيد درويش وأكملها محمد عبد الوهاب!!

وأصبحت منيرة المهدية المطربة الأولى في مصر بلا منازع، وفجأة جاءت أم كلثوم إلى القاهرة، وأحست منيرة المهدية أن العرش الغنائي يهتز تحتها وسمعت أن الجماهير جنت بغناء أم كلثوم فلم تصدق ما سمعت، وفي إحدى الليالي ارتدت ملاية لف سوداء، ووضعت على وجهها برقعاً، وارتدت شبشباً في قدميها حتى تبدو كبنات البلد وصحبت معها الممثل محمد بهجت، وذهبت إلى مسرح رمسيس حيث كانت تغني أم كلثوم، واشترت منيرة تذكرة في أعلى التياترو، وهي أرخص مقعد في المسرح، وجلست منيرة المهدية تسمع أم كلثوم والجمهور يهلل وشهدت سيطرة أم كلثوم العجيبة على المستمعين، وهي تتحكم فيهم بصوتها الخلاب وتجعلهم يرقصون في مقاعدهم، ويترنحون على نغماتها، ويهبون واقفين مصفقين لها هاتفين بحياتها..

ولم تحتمل منيرة المهدية أن تحضر أكثر من الوصلة الأولى من غناء أم كلثوم فتركت المسرح غاضبة ساخطة على غباء الجمهور وجحوده وقلة ذوقه، عادتإلى عوامتها في النيل وهي تكاد تجن سخطاً وغضباً، وأخذت تفكر كيف تقضي على هذه الفتاة الصغيرة التي جرأت على تهديد عرشها، وأصبحت تهدد سلطانها؛وهداها شيطانها إلى حيلة غريبة للقضاء على المنافسة الخطيرة.

فقد قال لها أولاد الحلال أن سر أم كلثوم في شلتها: مصطفى أمين وكامل الشناوي، أنه الإعلان والصحافة، وأنها كما شاهدت لا صوت ولا صورة، وإنما بربجندة خايبة، ولكن الغريب أنها صدقت هذا الكلام رغم أنها ذهبت ورأت وسمعت!!

وسألت من معي من الصحفيين وقالوا لها سيطرت على الكل: يا ست الستات كل الصحفيين بتوع الليل والسهر، ولكن بتوع الجد ممكن يجي منهم..

وأشار عليهما بعضهم إلى اثنين: فكري أباظة وعبد المجيد حلمي، وسألت من أكثرهما استقامة وقلة خبرة وقلة شهرة وحاجة.. وتعجّب الجميع، ولكنهم قالوا لها: عبد المجيد حلمي رئيس تحرير مجلة "المسرح" وقلمه عنيف وهو صعيدي وشاب لم يسبق له نزوات ولم يعرف عنه مغامرات في عالم العشق والهوى.

وقررت منيرة المهدية أن تقع في غرام الصحفي الشاب، ودعته إلى الغداء في عوامتها وبعد ساعة واحدة كان يجلس تحت قدميها يبادلها عبارات الشوق، وهي تلقي البترول على قلبه المشتعل فتندلع النيران!

وخرج عبد المجيد الطيب من عند منيرة وهو مقتنع بأنه حبها الأول والأخير، وأصبحت مجلة المسرح في مجلة منيرة المهدية سلطانة الطرب في مصر والشرق! وبدأت مجلة المسرح تهاجم أم كلثوم وقالت في

١٧ يناير سنة ١٩٢٧، أم كلثوم لها مئات العشاق ولا أدري ماذا يحبون فيها، فهي ليست على شيء من الجمال ولا خفة الروح ولا سلامة الطبع.

وفى ٣١ يناير سنة ١٩٢٧ كتبت مجلة المسرح تقول "إن أم كلثوم نجمها قد غرب" وفي ٣١ يناير أيضاً كتبت مجلة المسرح تقول "أم كلثوم قدمت وهي بنت صغيرة شكوى لمحكمة السنبلاوين بأن شاباً من القرية اغتصبها" ووعدت بنشر نص الحكم ولم تنشره أبداً لأنه كان خبراً مختلقاً، ولكن هذا الخبر كاد ينجح في إعادة أم كلثوم إلى قريتها فقد قرأه والدها الشيخ إبراهيم وأقسم ألا تبقى أم كلثوم بالقاهرة بعد أن بزغ نجمها، ولكن الأب أصر لولا أن صديقاً للأسرة حضر في تلك اللحظة واستطاع أن يقنع الشيخ إبراهيم بالبقاء في القاهرة الملعونة.

وفي يوم ١٤ فبراير سنة ١٩٢٧ كتبت مجلة المسرح تقول "أم كلثوم يلذ لها أن يتطاحن الأصدقاء ويهان الناس في سبيلها، وكانت مثالاً للزراية بعظمة الرجال والعبث بعقول الشبان والاستهتار بقلوب أولئك الذين أوقعهم سوء الحظ في حبالها، أليس فيهم من طلق امرأته من أجلها؟ أليس فيهم من أصبح هزأة للناس من أجلها؟ أليس فيهم من قاطع أهله وأصدقاءه من أجلها؟ أليس فيهم من أخذت ثروته في التلاشي من أجلها؟!

وهي ماذا صنعت من أجلهم؛ حتى ولا شفقة ولا رحمة؛ أيها الرجال، اسمحوا لي أن أهزأ أنا بدوري منكم جميعاً، ليس في نفوسكم شمم ولا إباء، ليست فيكم نخوة ولا رجولة ليس لكم شرف ولا كرامة، إن أنتم

إلا ألاعيب تحركها امرأة طائشة يلذ لها العبث المجرم والاستهتار الكامل، اختفوا من أمامنا أننا نحتقركم جميعاً؛ انقذوا أنفسكم أولاً ثم تعالوا إلينا، طهروا أيديكم وأنفاسكم ثم اختلطوا بنا، يا رجال الشهوات الميتة والنفوس التي لا تشعر ولا تحس، ما أنتم إلا عبيد امرأة بلا قلب".

ولكن هذه الحملة العنيفة القاسية على المعجبين والمتحمسين للمطربة الشابة أم كلثوم لم تصرف الناس، وفجأة جاء أولاد الحلال وقالوا: لنغير ونعدل.. سنضرب أم كلثوم من المسرح وبسرعة أقنعت الست منيرة عبد الوهاب بإكماله لحن سيد درويش "كليوباترا".. ونجحت الفكرة مرحلياً عندما نشر الأستاذ فكري أباظة مقالاً في الأهرام بعنوان "معجزة الموسم" ويكتب عن ذلك الأستاذ "مصطفى أمين" في كتابه "شخصيات لا تنسى"، رغم أن مصطفى أمين أحد من قال عنهم ولاد الحلال لمنيرة المهدية كلاماً كثيراً!!قال فيه: "منيرة وعبد الوهاب يغردان تغريد البلابل، والجمهور يضج ضجيج الإعجاب العنيف بعد أن أخذت منه الدهشة كل مأخذ، واستولى عليه ذهول الخاشع أمام السحر الحلال مجرم في حق نفسه وحق الفن من لا يشهد رواية كليوباترا في الحال مجرم في حق النبوغ والعبقرية من لا يبادر بإذاعة خبر هذا النصر الحاسم، والنجاح البالغ عنان السماء!".

وأبدت منيرة إعجابها الشديد بفكري أباظة، وغار عبد المجيد من فكري أباظة وكتب مقالاً في مجلته يقول فيه: "وقامت الدنيا، وتحدث الناس عن هذا الإعلان الغريب، وقال يومها الناس كم تقاضى فكري

أباظة ثمناً لهذه الكلمة؟ ولكن الناس لا يعرفون الحقيقة، انتهى الفصل الأول من رواية النجاح الباهر، ودخل مع الجمهور فكري أفندي أباظة وظل واقفاً ينظر إلى السيدة منيرة وهي تحيي هذا، وتبتسم لذاك، فهذا ينحني لها، وذلك يقبل يدها اليمنى! حتى انتهى الدور إلى فكري أباظة، ومرت به السيدة بكل عظمة، فانحنى حتى كاد يمس الأرض بجبهته، فقدمت إليه يدها فقبلها، لا كلمة ولا ابتسامة! هذا هو الثمن الذي تقاضاه فكري أباظة ليكتب تلك الكلمة".

واشتعلت نار الغيرة العمياء في قلب الصعيدي الشاب عبد المجيد وفي يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٧ كتب يقول لمنافسه:

"هي امرأة واحدة نحبها نحن الاثنان يا صديقي، أهو القدر يعبث بنا أم نحن نعبث بها، أم هي تلعب بنا جميعاً؟ قلت لي في مقابلتنا الأخيرة أنها باحت لك بغرامها، وأنها تحبك من دوني ولولا أنها تخشاني لنفرت مني وأبعدتني عنها، ألم تذكر أنها قالت ذلك؟ وفر عليك جهدك فقد سمعت منها هذه الألفاظ عنك.. إذن هي تعبث بنا جميعاً، أحدنا تخشاه والآخر تجد مصلحتها في استرضائه، ومع ذلك فأنت تعبدها وتطمع فيها وتغار عليها، أما أنا فأحبها بلا عبارة ولا طمع ولا غيرة".

وفي ٧ مارس سنة ١٩٢٧ كتب عبد المجيد حلمي إلى حبيبته يقول:

"كان الشرط ألا نتراسل، مهما جد في غرامنا، ومهما وقع لنا، ولكني أحب أن أقص في غيبتي مالا أستطيع ذكره أمامك، نذالة في الرجل يا سيدتي أن يغدر، ولكنها طهارة أيضاً ألا يكون مخادعاً ولا غشاشاً، وأنا اليوم أغدر بك، ولكني لا أغشك ولا أخدعك.. كنت أنت النار التي أشعلت جسمي، ولا أقول قلبي. ولكن هذا القلب كان يدق حين يشعر بالالتهاب. فظننت أنني أحبك، ظننت أنني لا أستطيع أن أعيش إلا لك أو من أجلك وفي سبيلك، وفي ذلك النهار الممطر الذي قضيناه معاً في منزلي، فجأة دفعتك عني كشيء قذر تمرغت فيه برهة ثم عافته نفسي فتنصلت منه أصبحت "لا شيء" في حين أنك منذ دقائق كنت "كل شيء" كنت أعتقد أنني أحبك وأنني لا استطيع فراقك كنت أغار عليك حين تمدين يدك بالسلام لمخلوق ما وكنت أحترق حين أراك تبتسمين لشخص آخر كنت لا أطيق مجرد التصور أن رجلاً غيري نظر إليك وابتسم لك.. أما الآن فلا أتمنى على الله إلا أن يبعدني عنك إلى الأبد".

وقالت منيرة المهدية: "هذا الحشرة.. يتركني أنا.. يترك ست الستات.. لست المرأة التي يتركها رجل أنا الذي أترك".. وجن جنون برج الحمل برج منيرة المهدية آه من برج الحمل.. وآه من امرأة يبدأ اسمها بحرف ميم إذا قررت الانتقام والثورة.

وجاء أولاد الحلال.. وقالوا لها: "بشبشي له.. اسحري له".. وقالت: "إيه الكلام الفارغ ده.." وقالوا لها وصفة معروفة بعض الآيات وبعض الطلاسم تكتب على ورق بالزعفران وتغسل بالماء ويشرب منها

المحبوب!! أو شيء من (أطره) قطعة قماش منديل، وتعرف اسم أمه ونعمل له عمل.. وقالت الاثنان معاً.. ابن الـ... وابن الـ....

وفي ٢١ مارس سنة ١٩٢٧ كتب عبد المجيد يقول "كنت لا أبصر امرأة يا صديقي إلا هزأت منها واستهترت بها، فأصبحت الآن لا أبصر امرأة إلا أحببتها وتمنيت أن تكون فريسة أعبث بها، وكما تسقط المرأة وتصبح تتاجر بنفسها وجسمها وتنتقم من الرجال جميعاً، لأن أحدهم كان علة شقائها وهاوية سقطتها، كذلك أريد أن أنتقم من النساء جميعاً، لأن إحداهن كانت سبب شقائي وعلة بلائي".

وفي ٢٨ مارس سنة ١٩٢٧ يكتب "وصلتني رسالتك منذ ساعات.. ورقة بيضاء فيها سطران وكلمتان.." افتح الدرج الأسفل في مكتبك، هناك وردة ذابلة أعدها إلي هذا كل ما تطلبين، حقاً لم يبق غير هذه بعد أن أخذت كل شيء، ألم تأخذي قلبي سالماً فترديه عليلاً؟ ألم تأخذي جسمي صحيحاً، لتعيديه سقيماً؟ أليست عواطفي وشعوري معلقة عليك في الحياة؟ إذن لم يبق شيء سوى الوردة الذابلة تستعيدينها؟.. هذه الوردة التي كانت كل سلوتي والتي أجمع فيها أحب تذكارات الهناء، وأقسى ذكريات الألم، ولكن سأعيدها إليك أيضاً.

وفي يوم ١٨ إبريل سنة ١٩٢٧ كتب إليها يقول "أصدقائي يصورونك لي بصورة بشعة، وما يزيدني ذلك إلا حباً فيك، وشغفاً بك وحنيناً إلى لقياك، أن حديث السوء عنك يصيب جرحاً في عاطفتي فيذيبها، المرأة التي أحبتها يحتقرها الناس!؟"

وفي يوم ١ مايو سنة ١٩٢٧ كتب عبد المجيد لها يقول: "أنت طاغية في حبك الأبله، طاغية في تفكيرك الجنوني، طاغية في عبثك الأثيم، طاغية في استهتارك السخيف، طاغية في إحساسك والشعور، ومصرع كل طاغية رهيب. فهل هذا بسبب الحب.. أم بسبب السحر؟.. أم بسببها معاً؟!

وسقط عبد المجيد حلمي صريع الحمى والحب، وارتفعت درجة حرارته، وأصبح يهذي ويذكر اسم منيرة.. منيرة وحدها، وأفاق من غيبوبته ليكتب يوم ٦ يونيو ١٩٢٧: الآن وقد مضت علي الأيام الستة وأنا فريسة المرض، بدأت الخيالات تمر أمامي تباعاً وفي من الأيام السوداء، أعيد على ذكرياتي الماضي بعيدة وقريبة، فيشتد الألم وتزداد قواي انحلالاً، تآلفت علي عناصر الطبيعة تريد أن تصرعني وتألبت لتغلبني ووقفت لها أحتمل ولا أدفع، وأصبر فلا أجزع، حتى ثقل الحمل ودنا المصرع"

واشتد الألم على عبد المجيد وذهب أصدقاؤه إلى منيرة المهدية يتوسلون إليها أن تذهب إليه ترد له الروح، فقد كان يطلبها وهو يهذي وكان يتوهم أنها إذا جاءت بقرب فراشه أعادت له الحياة، ولكن منيرة رفضت وقالت: أن عبد المجيد مريض بالسل وهي تخشى أن تصاب بالعدوى.

وقد اغتاظ محررو مجلة المسرح وأصدقاء عبد المجيد فنشروا لمنيرة المهدية صورة على غلاف المجلة في شكل قاتلة وفي يديها مسدس، وكتبوا تحتها "السيدة منيرة المهدية كما تريد أن تكون" وضاقت منيرة بحصار

أصدقاء عبد المجيد ونقاد المسرح وشباب الصحافة فسافرت فجأة إلى سوريا وأراد عبد المجيد أن يلحق بها ومنعه أطباؤه فاضطر أن يسافر لها، ووصل إلى سوريا مرهقاً متعباً وأدخل المستشفى وعاد أصدقاء عبد المجيد يتوسلون إلى منيرة أن تزور عبد المجيد في المستشفى فرفضت، وازدادت العلة عليه فعاد إلى القاهرة في أوائل يوليو ١٩٢٧ ثم تضاعفت العلة وأصيب بضعف شديد وأصر أن يسافر إلى أسيوط موطنه الأصلي ليموت هناك، وفعلاً سافر إلى هناك وأسلم الروح ودفن هناك.

ويكتب عنها مصطفى أمين في "أخبار اليوم" بتاريخ ١٩٨٦/١/١٨ تحت عنوان

"المطربة التي قتلت الصحفي.. والصحفي الذي دفن المطربة" يقول:

وفي يوم ١٠ أكتوبر ١٩٢٧ كتبت مجلة الناقد: "الذي قتل عبد المجيد هو ظهور نكران الجميل والخيانة والغدر، هوجم عبد المجيد من الخلف وأرسلت له السيدة منيرة المهدية أختها لتذهب له وتقول أيه يا سي عبد المجيد.. أنت عيان بالسل.. مش تسافر؟ لحسن تعدينا.. دول الممثلين مش راضيين يشتغلوا..

وفي ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٧ "كتبت الناقد" تقول:

"كانت منيرة المهدية تؤثر في عبد المجيد ببكائها وتطبع شعرها لكي يهاجم خصومها، واليوم وقد قضى المسكين فإن في السماء إلهاً يمهل ولا

يهمل وسيسألك: ماذا فعلت بعبد المجيد؟ احترمي الموتى يا شر مثال للخيانة والغدر!!".

وفي يوم ١٧ أكتوبر ١٩٢٧ كتبت مجلة الناقد تقول أيضاً:

"كانوا في القدس، وطلبت منيرة إلى عبد المجيد حلمي على لسان مراد عبد الرحمن خادمها أن يسافر لأن الفرقة لا تريده خوفاً من العدوى.. وأقسم له الممثلون أنهم لا يخشون منه شيئاً، ورأت منيرة ذلك فكلمت قنصل مصر في القدس لكي يأمر عبد المجيد حلمي، لم يعبأ عبد المجيد العنيد، وهو المشهور بصلابة رأيه، أرسلت منيرة إليه أن مكتب الصحة يطلبه وألا يعمل حجراً لفرقة منيرة يا للفظاعة والبشاعة ليس هو الطاعون ولا الوباء الأصفر، ولما ذهب عبد المجيد إلى مكتب الصحة أظهروا دهشتهم لذلك، وثاروا أنهم لم يطلبوه ولا داعي لذلك أبداً"

وهبت العواصف من كل مكان تقتلع منيرة المهدية من عرشها، البعض لعنها، والبعض هاجمها والصحفيون أهملوا أخبارها، والجمهور قاطعها ومضت منيرة تقاوم الصحف كلها والمجلات كلها والنقاد كلهم، كل أصدقائها تخلوا عنها حكموا عليها بغير محاكمة رفضوا أن يسمعوا شهودها أبوا أن يكون لها حق الدفاع عن نفسها! كان عبد المجيد معبوداً بين الشباب فقاطعوا مسرحها، وأطلقوا عليها اسم القاتلة وذهب بعض الناس إلى الشوارع ينتزع إعلاناتها الملونة أو يعمي عينيها الجميلتين المطلتين من إعلانات الحائط.

إن منيرة المهدية لم تقتل هذا الصحفي وحده، ولكنها تعودت على أن تقتل قلوباً كثيرة، فلقد أحبت وتزوجت من بطل المصارعة "حسن كمال" ثم هجرته وطلقته لأنها تحب أخاه الأصغر وبعدها تزوجت هذا الأخ الأصغر.. إبراهيم كمال.. وسقطت أم الأخوين ميتة بعد سماعها بهذا الزواج.. ولكن من يقاوم هذا الطول والعرض والشخصية والإغراء والعصبية. إنها مدت يدها ليسلم عليها رئيس مجلس الشيوخ حسين رشدي باشا ووجد الرجل نفسه يقبل يدها ليحدث أزمة برلمانية يقف فيها بسذاجة يقول "ليس في الدستور المصري مادة تمنع رئيس مجلس الشيوخ من أن يقبل يد مطربة".

كانت منيرة المهدية تحب شيئاً واحداً، هو منيرة المهدية، أن أي واحد أحبها قال هذه العبارة "أنا وهي نحب شخصاً واحداً. هي!!"..

وإذا احتاجت لشيء لم تفصل بين الحب وما تحتاجه، وتفعل هذا قبل الحب تمسح وتكنس وتكوي وتهب كل شيء ولها صوت مؤثر وكلام مؤثر وخطاباتها قصيرة ولكن فيها مقاطع من أغانيها.. أو أغاني الآخرين ولكن فجأة تتوقف عن خدمتك، وتبدأ في كنسك من حياتها وكويك بغيرتها..

أما الصحفي عبد المجيد حلمي فهو صاحب هذه العبارة "قلبها من ذهب، جامد، لامع، بارد!!" ولكنها الوحيدة التي تصنع الحب بالكتابة بالزعفران والسحر على الورق الأبيض هل أحبت الصحفي أم كرهت أم كلثوم!!

أما أم كلثوم فقد فعلتها معها بذكاء، وعلى عينك يا تاجر وبمنتهى البراعة والطيبة أرادت أن تنهيها للأبد، وبالعقل لا بالسحر. قررت أن تتركها تغني ليقارن الجمهور!!

وعن ذلك يحكي "مصطفى أمين": وفجأة سألتها:

- وإيه حكاية عبد المجيد؟
- قالت في استغراب: عبد المجيد مين؟
- قلت: عبد المجيد حلمي مجلة المسرح.
- قالت: آه.. آه.. عبد المجيد دي حكاية بسيطة، كان يحبني حباً جنونياً وكنت أعطف عليه لطيبته وبراءته ولكني لم أحبه لأن غيرته كانت كالإعصار تحطم كل شي أمامها!

ومضت الأيام وانقطعت منيرة المهدية عشرين سنة عن الغناء، وذات مساء اتصلت بي أم كلثوم تليفونياً وقالت لي: "إنني أدعوك معي في حفل ساهر اشتريت بنوار في صالة بديعة وستغني منيرة المهدية، وأنا أريد أن أشجعها وأصفق لها" وألحت إلحاحاً عجيباً أن أصاحبها.

وذهبنا وغنت منيرة المهدية، ويا ليتها ما غنت، كان صوتها أشبه بالأسطوانة المشروخة، فقد صوتها حلاوته وبحته ورخامته وجاذبيته، وكانت أقرب إلى ملكة محنطة في تابوت ترى فيها الماضي الخالد ولا تجد من أثر الحاضر سوى التراب، وكانت أم كلثوم تلهب يديها بالتصفيق وتزغدني في كتفي لأشاركها في التصفيق، وخيل إلي أننا وحدنا الذين كنا نصفق وأن

الجالسين في الصالة انهمكوا في الحديث عن ذكريات سلطانة الطرب وبريقها الفتان، ظهرت التجاعيد تملأ وجهها بقسوة ووحشية، انطفأت روحها التي كانت تملأ المسرح حيوية!لم تكن منيرة المهدية! كانت شبح منيرة المهدية!

فعلتها أم كلثوم وأخذت بثأرها بعد أربعين سنة من واقعة أول مقالة كتبها الصحفي المسحور المتيم عبد المجيد ضد أم كلثوم وعشقاً لمنيرة المهدية!!

نعم تزوجت حليم

(س . ح)

من منا لم يحب أغاني عبد الحليم حافظ؟ويستوقفه هذا الشاب الرقيق الدقيق المملوء بالإحساس الذي يغني بشجن وكأنه يتألم في رومانسية مسموعة ملحنة!

من منا لم يدندن: صافيني مرة، موعود، أسمر يا اسمراني، مداح القمر؟!

من منا أستطاع أن يقاوم البحر وفناجين الغيب المحوجة في رسالة من تحت الماء وقارئة الفنجان.. إن يوسف إدريس نفسه كتب مقالاً بعنوان: "قول يا عبد الحليم..!! الذي كانت حياته سراً.. سر في علاقته بالمرض.. وسر في علاقته بعبد الناصر وثورة يوليو.. وسر في اليتم والتواضع ولكن سره الأكبر.. والأعظم كان في الحب..

ولذا لم يكن غريباً في فيلم "زوجة رجل مهم" أن يؤرخ المخرج للرومانسية المصرية بأغاني عبد الحليم، وأتذكر أن أول حب صادفني وأنا بالمريلة في السنة الخامسة في مدرسة الإنجيلية الابتدائية المشتركة دفعته بأغنية لحليم تقول "والشعر الحرير على الحدود يهفهف ويرجع يطير" فلم يكن عبد الحليم يغني، وإنما كان يحكي قصة حب، في كل أغنية من أغانيه

حكاية لكيوبيد، فلقد أحب زوجة سفير من أسرة كبيرة، وكان لها أولاد ولاقى في ذلك عتاباً.. فغنى "بتلوموني ليه.." رآها بمصعد عمارة بالإسكندرية فقال لها: أنت من أنتظرك؟!

وحولها وبنفس البداية كتب الكاتب الصحفي "محمود عوض" المسلسل الإذاعي الوحيد لعبد الحليم حافظ واسمه "أرجوك.. لا تفهمي بسرعة" مع عادل إمام ونجلاء فتحي، وكان بهذا المسلسل تفاصيل كثيرة عن حياة هذه الحبيبة.. إن نفس قصة الحب هي نفس قصة المسلسل "كيف تتزوج بنت الأكابر من مطرب؟! كيف تطلق ابنة السفير من زوجها السفير لتتزوج مغنواتي؟! لو حدث ذلك فأنت لست بنتنا ولا نعرفك ولا نقبل أن تدخلي بيت الأسرة ولن نسمح لك أن تري أولادك بعد الطلاق. ولكن الجميلة تتحدى الدنيا من أجل المغنواتي!!"

وكانت سنوات ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ ، ١٩٥٩ من أجمل سنوات حياة عبد الحليم، وانتصرت الحلوة وحصلت على الطلاق من زوجها وتنازلت عن كل حقوقها وبدأ حليم يستعد للزواج منها وفجأة على طريقة الأفلام العربية تسقط الفتاة مريضة بمرض سرطان الدم وتضع بذرة أغنيتين سيغنيهما عبد الحليم في السبعينات "موعود"!! ولم تكن هذه صدمة حليم الأولى مع بنات الذوات" فلقد سبق وطرده والد فتاة أرستقراطية لجرأته في طلب يد ابنته!!"

ولكن حليم المجروح في الحب، غنى للحب "أول مرة"، "جبار"، "في يوم في شهر في سنة" وكما أبعد مرض الحبيبة مشروع الزواج الأول في

حياة حليم أبعد المرض بعد ذلك نفس المشروع عن كل الحلوات، فحليم عنده مرض لا يتزوج معه إلا الفن، وفي مارس ١٩٧٥ ودع حليم حباً قوياً له من دمشق!!

أما الحب الذي رصده كل الكتاب فهو حب بدأ مع فيلم " البنات والصيف" للنجمة السينمائية سعاد حسني التي قامت في الفيلم بدور أخته.. وكلمة أخت عند الفراعنة تعني الحبيبة!!

كتب عن هذا الحب: مصطفى أمين، ومحمود عوض، وجليل البنداري، ومفيد فوزي.. كان السؤال من الذي أحب الآخر أو وعد الآخر بحبه؟!

فمصطفى أمين في كتابه "شخصيات لا تنسى" يقول: في أوائل الستينات أحب عبد الحليم نجمة سينمائية شابة، وأحبته حبًا جارفاً مجنوناً وفي سنة ١٩٦٢ أصيب بنزيف حاد وهو يقيم في شقته في عمارة السعوديين بالجيزة وكنت أزوره كل يوم مرتين في شقته، وفي كل مرة ألاحظ عند دخولي إلى غرفة نومه حركة وجلبة، وامرأة تختفي في الغرفة المجاورة وظننت في أول الأمر أنها أخته "علية" أو زوجة أخيه "فردوس"، وفي إحدى المرات لمحتها وعرفت أنها النجمة السينمائية المشهورة، ولم أقل شيئاً لعبد الحليم!!

ولكن حليم قال لي بعد ذلك إنها ترفض أن تترك فراشه وأنها تنام تحت قدميه على الأرض لتخدمه أثناء مرضه وأنها تحبه وتريد أن تتزوجه وسألته هل يحبها فقال نعم ولكنه لم يقرر أن يتزوجها أو لا يتزوجها!!

أما كامل الشناوي فما أن سمع بإشاعة الحب بين المطرب والممثلة حتى قال له: علمت يا حليم أنك تحب فلانة النجمة السينمائية. ولو سألت عنها في البيت الآن لوجدت عندها كاتباً صحفياً معروفاً وأمسك بالتليفون ليطلب النجمة السينمائية المشهورة ولكن عبد الحليم "رفض"!! وبعدها سمع حليم إشاعات كثيرة عن النجمة السينمائية وأضاف له كامل الشناوي عبارة "إكفي الزبدية على فمها البنت تطلع لأختها" فقد كان كامل الشناوي موتوراً من حب مستحيل مع أختها نجاة الصغيرة.

وطلب حليم من الراحل مرسي جميل عزيز أن يترجم إحساسه وغضبه وتوتره مما يسمع وجاءت أغنية "تخونوه"! وبعدها وبذكاء عبد الحليم المشهور لم يعلن عن حبه كتم كل شيء أو قرر أن يكون كل شيء سراً!! وقرر كامل الشناوي أن يجعله يعترف وجمع عبد الرحمن الخميسي "مكتشف سعاد حسنى"، ومحمد السيد شوشة، والأستاذ جليل البنداري، واستطاع بذكاء أن يحصل من حليم على أحاديث صحفية حاول من خلالها الإيحاء بأن سعاد هي التي تطارده للزواج منه!! ورغم أن البنداري أكد له بأن سعاد حسني هي التي رفضته حينما عرض عليها الزواج في رحلة إلى أوروبا ذهبا فيها معاً. إلا أن سعاد حسنى لم تكذب أي شيء مما نشره كامل الشناوي عن تهافتها على عبد الحليم!! بل أن سعاد حسني

بعد أسبوعٍ من نشر ما قاله عبد الحليم تزوجت المصور السينمائي "صلاح كريم"!!

وفجأة انطلق المحاور الموهوب مفيد فوزي بعد كامل الشناوي بثلاثين سنة ليفعل نفس الشيء مع سعاد حسني فتح صفحات مجلة صباح الخير لحوار طويل لها سنة ١٩٩٣ كان الحوار بينهما في لند، واستطاع أن يستفز حيوان اللؤلؤ للخارج، خرج الخبر من المحارة الداخلية للسندريلا وجاء الاعتراف القنبلة في العدد رقم ١٩٤١ وبالتحديد في ليلة القدر برمضان سنة ١٤١٣ هـ فلقد دعا مفيد ربه في هذه الليلة المقدسة أن تبوح سعاد حسني، وقالت سعاد: لقد تزوجت عبد الحليم، واستمر زواجي به ٦ سنوات، وأنها حبه الأول أما تفاصيل هذا الخبر فبدأت بهذه الأسئلة:

مفيد: أجيبي عن سؤالي عن "حليم"؟

سعاد: بخبث لذيذ لماذا قلت حليم ولم تقل عبد الحليم حافظ؟

مفيد بجرأة: أنا أختار الاسم الذي كان يروق لك أن تناديه به.

سعاد: حليم كان حضوراً ساطعاً طاغياً. وكنت أيضاً تعرف ذلك.

مفيد: كنت أتمنى أن يجمعكما بيت واحد، لا فيلم واحد.

قالت سعاد حسني بهدوء: "حصل!.. زواج عرفي استمر ٦ سنوات".. إذن تحققت نبوءة القسيس الفرنسي الذي قال لحليم: "عمرك قصير.. لكنك ستتزوج امرأة يهواها كل من يراها"

نعم كان يجب أن يلتقي اليتيم العليل بالجميلة المحرومة من الحنان، كان لقاء الصوت الحلو، بالعفوية الحلوة.. شيئاً لابد منه.. المطرب والجميلة.. اليتيم والحلوة.. المتناقضات تتكامل..

وهو معها يقول: موعود يا قلبي بالعذاب.. وهي معه تقول: محروم يا قلبي من الحنان... ومن المعروف أن رحلة جمعت بينهما في المغرب. وضعت نهاية للحب أو الزواج وكانت تدور حول رغبات عبد الحليم في أن تترك سعاد حسني الفن وتتفرغ له!!

سألها حليم: هل فكرت؟ ردت في ثقة: أنت كنت بتتكلم جد.. أسيب فني إزاي.. ومين اللي يقول كده.. فنان كبير زيك؟؟

يذبل وجه العندليب.. يرد هو الآخر بانفعال واضح: "إذن لن نتزوج!!"

وتشعر سعاد بأن كبرياءها طعن وتهمس له: أنا لم أطلب منك أن تتزوجني!! وتترك المغرب وتسافر إلى مدريد.

ويقول حليم للناقد الصحفي: رفضت اعتزال الفن وأنا لن أطيق أن أرى زوجتي يحلم بها المعجبون!! ليتني كنت متحرراً أكثر!!

وتقول سعاد للصحفي عمر السيد شوشة: علاقتي بعبد الحليم حافظ أعطتها الشائعات أكثر من حجمها وإذا كان إعلان سعاد حسني لزواجها من حليم لمفيد فوزي جعل أخته "علية" تتحدى وتتهمها بالكذب فإن الأستاذ "عبد النور خليل" ينضم إلى أخت حليم "علية" في كتابه

الذي عنوانه "أسرار لم تكن للنشر" ليوضح أنه في ربيع سنة ١٩٦٨ علم عبد الحليم حافظ من المنتج رمسيس نجيب قتل حبه لسعاد حسني ولا يمكن أن يكون تزوجها بعد هذا الخبر وهو التاريخ الذي حددته سعاد باعترافاتها!! ثم أنه بعد هذا الخبر لم يكن أحد ليلوم عبد الحليم على شيء.

لقد أخبره رمسيس نجيب بأن سعاد حسني ممنوعة من السفر، وبالتالي فلن تستكمل معه فيلم "أفراح" الذي سيسافر ويصور معظمه في لبنان. وحينما قرر حليم أن يتدخل نصحه رمسيس نجيب ألا يفعل لأنها متهمة في قضية خاصة بالمخابرات العامة "عرفت بعد ذلك بقضية صلاح نصر" وعرف حليم بأن عبد الناصر يشرف على التحقيق بنفسه، فتراجع.. أما القضية فتفصيلاتها نشرت في كتاب "لاعتماد خورشيد" صودر لكن بعد الطبعة الثالثة!! وحينما أدرك حليم بأن الوقائع تتعلق بها شخصياً قطع كل ما بينهما وقرر أن يدفن حبه للأبد.

وكان هذا اليوم هو مولد نجمة جديدة هي "فاطمة الزهراء" الشهيرة بنجلاء فتحي حيث قامت بالدور في الفيلم مع ثلاثي أضواء المسرح والممثل حسن يوسف ولكن سعاد حسني التي أحبت كانت تتلصص على أخباره، مثلما يتلصص هو على أخبارها.. الحب نستطيع أن نقاومه ولكنه أيضاً يفعل أثره!! وكلما أصيب حليم بنزيف سارعت سعاد حسني إلى بلدتها طنطا وركعت أمام ضريح السيد البدوي تدعو الله له بالشفاء.. دموعها تنهمر أمام الضريح لا تتخيل أن يخطفه الموت منها.لقد

ضاع الحب الكبير بين عناد الحبيب وكرامة المحبوبة.. لكن الموت بشع، وانهزم الجميع أمام الموت!!

أما الكتاب فقد أحبوا هذا الحب، أحبوا أن يكتبوا عنه.. أن يعيشوه مع أطرافه، ليكون كتاب منير عامر هو الكتاب رقم "٩" الذي يخلد هذا الحب سراً أو علناً، كتابة أو صراحة مباشرة أو بدون مباشرة!!

***

ملكة..وآخر ظرفاء ذلك الزمان

كل قصص حبي.. على يد المأذون!!

تحية كاريوكا

ولدت في **١٩** فبراير **١٩٢٢** امرأة من برج الدلوأسماها أبوها محمد على النيداتي باسم "بدوية"، وكأنه يتنبأ بموهبتها المستقبلية وسماها الجمهور "كاريوكا" أما تحية فهي تسمية محاسن الراقصة التي سلمتها إلى بديعة مصابني، وفي كباريه بديعة عرفت أشهر وأجمل راقصة تحية كاريوكا.

ومن يومها وهي كما يقولون "اللي في قلبها على لسانها" إنها تقول للأعور أنت أعور.. في عينه!! قالتها للملك فاروق، وقالتها لسعد الدين وهبة في اعتصام الممثلين والممثلات الشهير الذي سجله المخرج يوسف شاهين في فيلم "إسكندرية كمان.. وكمان" وتقول في مذكراتها التي نشرت منذ خمس سنوات في الأنباء الكويتية على حلقات أنها فعلت نفس الشيء مع عبد الناصر نفسه رغم أنها تحبه؛ فقد كونت مع زوجها الضابط "مصطفى كمال صديقي" تنظيماً له طابع يساري كان من أعضائه صلاح حافظ وشريف حتاتة بقصد تصليح مسار الثورة وخاصة بعد أحداث سنة **١٩٥٤** وأنها لم تكن تنهم في السياسة بعمق ولكنها تعرف ما هو الحق والشرف والصراحة وضبط معها منشور فيه هذه العبارة "ذهب فاروق وأتى فواريق" ودخلت

السجنوتعجب السجانة من هذه الشيوعية التي معها مصحف تقرأ فيه باستمرار سورة "يس"!!وأنها بموقفها العفوي ذلك والذي أسموه سياسة.

قال لها صلاح حافظ: يا تحية.. زوجتي حامل.. وكنت أريده ولداً، ولكن بعد ما عرفتك وعرفت شهامتك أتمنى أن يكون بنتاً، وجاء المولود بنتاً فسماها "تحية"!

وقال شريف حتاتة بمنتهى الرزانة والاهتمام في اجتماع: مصر تحتاج لشيء يشبه رقص تحية.. هادئ ومتقن الاهتزاز، فالعنف والاهتزاز الراديكالي لا يفيد نحن نصحح مساراً ولا نقلب على الثورة!!

وكان زواجها من "مصطفى كمال صديقي" هو أول مرة تخلط فيها بين الحب والسياسة وبعدها توبة؛ فقد كان مصطفى كمال أحد رموز الحرس الحديدي الذي كونه د. يوسف رشاد لحماية الملك فاروق وحاشيته وأنه هو الذي اكتشف وجود خيوط بين الممثلة كاميليا والموساد اليهودي، وأنه تعود كيف يستطيع أن يوقع أهل الفن وبخاصة الحريم في جعبة التجنيد، وحينما بدأت الثورة تشجع الفن وتوظفه ظهر "مصطفى كمال" مرة أخرى بمواهبه نفسها يقود قطار معونة الشتاء الذي كانت الثورة اخترعته ووضعت فيه الفنانين لتقديم المساعدات للأهالي الذين يستحقونها. وكان في القطار رموز جديدة ارتبطت بالثورة: برلنتي عبد الحميد، مها صبري، ليلى مراد، وغيرهن، وبشهامة أو لأنها الموضة ركبت تحية كاريوكا قطار معونة الشتاء..

وإذا كانت سعاد حسني تقول بكلمات صلاح جاهين: بمبي.. بمبي.. بمبي..

فإن الأمر كان مختلفاً أيامها كان الواقع يقول:

كاكي.. كاكي.. كاكي.

الحياة بقى لونها كاكي

والكل لازم يكاكي.

والكاكي هو لون ملابس الجيش الرسمي، والواقع أنه منذ قيام الثورة والفن يلتصق بها.. ويلتف من حولها، في حين هي كانت ترعاه وتحتضنه، ومن هنا شهدت مصر صوراً عديدة من التعاون الفني العسكري، أو العسكري الفني، لتتزوج تحية من رجال الكاكي، ولكن خلافاً وقع بين رجال الصفوف الثانية من الضباط الأحرار حول إقالة محمد نجيب من رئاسة الجمهورية، تسبب في عودة مصطفى كمال صديقي إلى مكانه القديم في الحرس الحديدي الذي جعله ينادي بأهمية تعديل مسار الثورة.. ليدخل وتدخل معه تحية السجن الحربي.. بل أن حلمي رفله حينما استغل بعض أقربائه ليزور تحية ويعطيها بعض الطعام قبضوا عليه أيضاً!!

وبعدها كفر مصطفى كمال صديقي بالفن، وقال لتحية: "لم يعد هناك طريق واحد يجمعنا" فهو ثائر وهي راقصة.. أعلن أن الرقص والسياسة لا يمكن أن يكونا في زجاجة واحدة. وأن الناس بمجرد أن تسمع أن تحية كاريوكا كانت في التنظيم حتى تعتقد أنه تهريج ومهلبية!! قالوا له

ذلك في السجن أن تنظيمه على واحدة ونص، وأنه ليس فيه إلا صفة واحدة حلوة أنه تنظيم بلدي.. ها ها.

وأخذت الفكرة فيما بعد، وأنتجتها ليلى علوي للسينما في فيلم "يا مهلبية يا..." لتقول هل يمكن أن تكون هناك راقصة ثائرة، أو راقصة وطنية؟!

مع أن تحية كاريوكا كانت أكثر ثورية من مصطفى كمال صديقي نفسه؛ ففي تاريخها أنها كانت تساعد الفدائية على معرفة أسرار الإنجليز من عملها في كباريه بديعة. ولأنها من الإسماعيلية وتحبها ففي مذكراتها أنها حملت طوربيد سنة ١٩٤٨ للفدائيين، وأنها رأت الرئيس أنور السادات بعينها مختبئاً في منزل أحد أشقائها بعد اتهامه في قضية مقتل أمين عثمان فاشترت لهم خمسة كيلو لحمة وخضار حتى تقلل من نزول أهل البيت لشراء شيء أو الحديث مع أحد!!

ثم أنها جعلت فاروق يحنق عليها حينما رقصت للملكة فريدة، ورفضت الرقص للملكة نازلي أم الملك، وبالرغم من خناقات الغوازي فإنها ظلت تعلن أن وصول "سامية جمال" زميلتها وصديقتها في كباريه بديعة لقصر فاروق جاء للكيد في "أسمهان "!! وأن الملك فاروق كان يعشق الانتقام غيرالمباشر؛ فأسمهان خطفت الرجل العجيب الغريب " أحمد حسين" من الملكة نازلي، ثم أنها قامت بعد ذلك باللعب للملكة نازلي في فندق داود بالقدس، ففعل نفس الشيء معها خطف حبيبة أخيها فريد الأطرش منه!!

ومع ذلك ضربتها أسمهان ضربة العمر وأعطتها كف سليمان غانم في ليالي الحلمية المسلسل الشهير، حينما تزوجت بأحب أزواجها لقلبها "أحمد سالم"، وفي حين أن أحمد سالم تزوج تحية عرفياً فقد رضي أن يتزوج أسمهان (ملكي وشافعي وأبو حنيفة)!!

فتحية كاريوكا هي الشاهد على صدق إحسان عبد القدوس "الراقصة والسياسي" فهو يرى أن هناك تشابهاً بين الرقص والسياسة، وأن السياسة قد تكون عند أقدام الراقصات، والرقص يمكن أن يكون فوق موائد السياسة!!

ولقد أكد هذه الحقيقة كتاب "راقصاتنا والجاسوسية" لمختار سالم، حينما سجل أدواراً كانت فيها السياسة والرقص في زجاجة واحدة، وكان ذلك أكثر ظهوراً في حياة "ببا فهمي وأسمهان وكاميليا وحكمت فهمي".

ولأن تحية كاريوكا امرأة، وجدعة، فهي تقول في مذكراتها "العبة الحب في حياة تحية كاريوكا".. إنها لا تعرف حب العذاب والتسبيل إنها تؤمن بالطريقة الرجالي في الحب.. إذا كنت تحب فعليك أن تفوز بمن تحب.. إنها تهتم بأن تحب!! لا أن تصبح محبوبة.. يهمها أن تعيش حبها.. ثم أنها تعشق كل شيء بالحلال.ولذلك لا يهم أن تدفع.. لا يهم المال.. المهم الفوز بالرجل.. إن حبها يكلفها كثيراً ولكنه حب مضمونه الذهاب للمأذون!!

حتى في زواجها من "الرجل الميري" مصطفى كمال صديقي فرغم شخصيته العسكرية ورتبته الكبيرة فإنه دخل عليها في بيتها، وهي التي قامت بشراء حجرة النوم على ذوقها وبفلوسها!

حتى رشدي أباظة لم يأخذ في يد تحية كاريوكا "غلوة" اشترت له قداحة ذهب بـ ٢٥٠ جنيهاً، فكان قلبه يشتعل بالحب كلما أشعل سيجارته وكان مدخناً شرهاً!!

وبطريقتها قالت له: ما رأيك في منزلي؟.. على فكرة أنا أفكر في تغيير حجرة النوم!! وبعدها جاء الزواج ممن يقاوم هذه المرأة القوية، الكريمة ، صاحبة الرؤية الخاصة في الحب!!

وهي تروي أنها كما تحب؛ فإنها تكره. وكما تقرر الارتباط تقرر التخلص، وتقتلها الخيانة!!

وقالت لرشدي أباظة: أخرج من المنزل برة.. إنك تخونني مع فتاة في عمر ابنتك!!

ولم يقاوم شجيع السينما خرج ولم يعد وأرسل ورقة الطلاق، فهو يعرف من هي "تحية" لها أكثر من لون، وطريق!!

وأكثر قصص الحب في حياة تحية كاريوكا دليلاً على طريقها أو أسلوبها في الحب حكايتها مع محرم فؤاد!! إنها التطبيق الفعلي لموال قديم أو الأسطورة "بيجماليون"!! فكل قصص حبها تنتهي بهذا الموال الشهير:

"طلعت فوق السطوح أنده على طيري

لقيت طيري بيشرب من قنا غيري

زعقت من عزم مابي وقلت يا طيري

قاللي زمانك مضى.. دور على غيري"

فلقد اهتمت تحية بالمطرب الشاب القادم من الإسكندرية ووقفت وراءه حتى عرف كيف يلبس ويتحرك ويتصرف مع مجتمع الفن استطاع أن يفوز بدائرة تحية كاريوكا الواسعة فنياً واجتماعياً

وحلمت تحية أن يكون "محرم فؤاد" ولي العهد على عرش الفن الذي احتله عبد الحليم، فلكل ملك ولي عهد ومحرم فؤاد هو ذلك الملك المنتظر، وكانت تحية كاريوكا وراء الكواليس في فيلم "حسن ونعيمة" الذي قدم محرم فؤاد وسعاد حسني. واختير الفيلم ليمثل مصر في مهرجان برلين.

ولكن محرم لم يصبح ولي العهد _ بالرغم من كل الظروف المواتية_ والسبب الغرور الذي ركبه وقررت تحية أن تتزوجه حتى تستطيع أن تجعله يصل لعرش الغناء، ولكن الحياة المشتركة كشفت كثيراً من عيوبه.كانت تقول له: شايف حليم بيلبس إزاي.. بيتحرك إزاي.. ولكنها قتلته حينما أصبحت تشتري له ملابسه وتختار له نوع البارفان والروب والبدلة. ولكنه عاند وأصبح يذهب لأصحابه في السيارة بالشبشب والبيجامة وشعرت بأن مشروع ولي العهد لن يتم فهناك فروق.. اختلاف في الرؤية.. المعادلة لم تتم.. وجاء الطلاق..

رجل واحد كان يجب أن تلتقي معه وتضربه ويضربها وتعانده ويعاندها، كان هو فايز حلاوة!! إنه رجل من برج الدلو أيضاً مولده ١٣ فبراير سنة ١٩٣٢ وهو مثلها ابن حظ كان يذاكر دروسه في الحقوق على مقهى الفيشاوي بالحسين حتى بعد أن حصل على ليسانس الحقوق سنة ١٩٥٤ لم يجذبه القانون بل جذبه العود والموسيقى والسهر، فتقدم للمعهد العالي للفنون المسرحية قسم تمثيل، ثم عمل مخرجاً، ثم أعجب بفكرة الكتابة للمسرح واختار نوعاً معيناً من الكتابة "الكتابة النقدية الساخرة" وفي مجال واحد: السياسة، وكانا يجب أن يلتقيا في القاهرة المحروسة تحية بنت الإسماعيلية في الشمال التي ترقصبالسياسة وتحلم بالفدائية في القناة، وفايز حلاوة ابن الجنوب الذي يكتب عن السياسة بعهر الراقصات وصاجاتها، ولأول مرة لا تختار تحية "إنما تُختار".. رآها وهي ترقص، ورآها وهي تمثل.. واتبع طريقتها أو هي طريقة برج الدلو "في العشق، لا بد أن يفوز بها.. بالجرأة.. بالوقاحة.. بالصلابة.. بالكلاحة..

"إن أنيس منصور يقول عن فايز حلاوة "سحابة قدرية محملة بالأمطار لا يستطيع أحد أن يوقف هبوطها أو هطولها" أن أنيس منصور لم يستطع أن يوقف سحابة فايز حلاوة حينما قرر أن يكتب "حلويات" نسبة إليه في مجلة أكتوبر! ولم تستطع أيضاً تحية كاريوكا أن تمنع هطوله حينما قرر أن يتزوجها رغم أنها سبق وأن تزوجت أساطير الرجال: محمد سلطان باشا _ الضابط الأمريكي جلبرت الذي أشهر إسلامه عشان خاطر عيونها!! _ رشدي أباظة _ أحمد سالم _ مصطفى كمال صديقي

والذي عليه حسدتها نادية رشاد أشهر امرأة في بلاط الملك فاروق وأول مصرييحصل على جائزة في التزحلق على الجليد وأعتقد أنه آخر مصري!!

جاء هذا الحرفوش فايز حلاوة وسط الملوك ليكون جوكر حياة تحية كاريوكا وأطول زواج من ١٩٦٢ ولمدة ٢٣ سنة حيث وقع أسوأ طلاق بعد مجموعة كبيرة من القضايا والاتهامات!! وكالمسرح الذي أحباه معاً احتوى غرامهما على ثلاثة مشاهد زواج ومثلها طلاق.. وفي المرة الأخيرة سجلا الرقم القياسي لأقصر طلاق بعد خمس ساعات من عقد القران.. أما مشهد النيابة فهو شيك بـ ٧٠ ألف جنيه أعطاه فايز حلاوة في ١٩ مايو سنة ١٩٩٣ لتحية وكان بدون رصيد!! لم يعد عندهما رصيد لبعضهما حباً ولا مالاً!!

أما هذه السنوات الثلاث والعشرون فقد كان فيها ١٦ سنة مسرح "تحية كاريوكا" كتبه فايز حلاوة فجر الدنيا حوله وأول من ألقى بالكراسي في المجتمع السياسي.

رغم أن فايز حلاوة كان يخرج بتحية كاريوكا من ثوب العوالم لثوب الثوار، وكان يجعلها تهز الناس بوجودها وصوتها وحضورها لا بجسدها الذي يستطيع أن يبرز كل مفاتن الدنيا في مساحه لا تزيد عن متر مربع واحد، وكما كان لتحية كاريوكا فضل تكوين شخصية الراقصة الشرقية المصرية وسط رهط الراقصات الأجنبيات واللبنانيات والأرمن. استطاعت أن تصنع لبنة المسرح الانتقادي السياسي والموسيقار محمد عبد الوهاب يقول "الرقص قبل كاريوكا كان سوتيه مسلوقاً وبعدها أصبح مسبكاً".

أصبح المشاهد يحب هذا النوع الذي اعتبره شريف حتاتة نوعاً من السياسة الذي تحتاجه مصر "التركيز التشتيت اللوحة الثمينة تشاهدها دائماً وهي معلقة، ثابتة، تتأملها وتستطيع أن تكتشف أصالتها من زيفها"

وقدم فايز حلاوة مسرحية "الثعلب فات" وانتقدت تصرفات وحياة "صلاح نصر" واستخدم النساء لعبه المخابرات وقابل صلاح نصر تحية كاريوكا وقال لها: يظهر أنك كبرتي وخرفتي، تحبي تروحي المستشفى يا تحية؟!.. وكسرت زجاجة على طريقة شبيحة روض الفرج والبودي جارد وجرت وراءه حافية حتى الشارع وشكاها للمشير عبد الحكيم عامر وقال له: دي مفترسة.. مش عارف الغوازي.. وانتهى الأمر!!

ثم جاءت رواية "البغل في الإبريق" واستخدم مشاهد وعبارات منها الطلاب في مظاهرات ١٩٦٨ ووصل ذلك لجمال عبد الناصر، وتقول تحية كاريوكا نفسها عن ذلك في لقاء لها مع نجوى إبراهيم: إن جمال عبد الناصر بعد أن وصل له تقرير مفصل قال الراقصة بنت الكلب دي حتضيع اللي عملته في ١٧ سنه برواية!!ومنعت الرواية، واستمرت المظاهرات، وزاد الطينة بلة أن تحية كاريوكا ذهبت للطلبة المعتصمين بميدان التحرير بالطعام وسيناريو مسرحية "البغل في الإبريق".

وجاء وزير الداخلية وقتها "شعراوي جمعة" وقال لها الرئيس ذهب للاتحاد السوفييتي وقال: "راضوها" ومحبش يأخذ قرار بالنسبة لك إلا بعد أن يعود وحزنت جداً تحية كاريوكا لأن الأمر بدأ كأنها تستغل غيابه وقررت ألا تفتح المسرح رغم السماح لها إلا بعد عودته.. وحينما عاد كانت أشياء

كثيرة تغيرت؛ ففتح المسرح مسرحية "روبابيكيا" ولا يستطيع أحد أن ينكر أن فايز حلاوة استطاع أن يروض الفرسة الشهيرة الصهيل تحية كاريوكا أحبته ووثقت فيه وسلمت له نفسها وأموالها، وحينما كان يتفقان في المسرحية في مشهد معاً، كان فايز حلاوة حريصاً على أن ينسي الناس أن تحية كاريوكا بدأت راقصة.. كان يقول أنها تمثل حين ترقص!!

وكل مرة كان فايز حلاوة الذي يكتب النص يضيف إليه ويخرج منه ويقول "ده أنا اللي كتبه يا بيه"!! ومعروف أن مشهد زيارته لصديقه عمر الخيام حيث خدعه شخص باعتباره صعيدي بلدياته وأخذ منه تحويشة العمر وقال تنزل الزمالك وتسأل عن عمر الخيام ألف من يدلك وذهبت!" فندق عمر الخيام معتقداً أنه منزل بلدياته وفي كل يوم يعمل فايز حلاوة شيئاً جديداً في المشهد!!

وفي إحدى المرات بدأ فايز حلاوة يحكي لتحية كاريوكا أنه وجد على الباب يافطة عمر الخيام والكوبيات عليها عمر الخيام وهو يحكي وتحية كاريوكا تقول: عمر الخيام، وفجأة قال بضحك وجئت وجاء الأكل بيض، وقالت تحية كاريوكا بعفوية: "بيض عمر الخيام" واستطاع فايز حلاوة بحركة مسرحية أن يوصل معنى جنسي في العبارة للصالة فانفجرت بالضحك وشعرت بالأمر تحية كاريركا فضربته بكوباية وقالت له: آه يا بن الكلب!! ونزلت الستارة وعادوا للتمثيل بعد خمس دقائق والصالة لا تزال تضحك، وكان مشهدا غريبا أن يطالب الجمهور بإعادة مشهد من المسرحية.. أول وآخر مرة نراها، وقالوا: "عايزين بيض عمر الخيام"، وقال

لهم فايز حلاوة وكأنه يكمل المسرحية: "وبعدين جت كفته صوابع" وماتوا من الضحك ولم يعد المشهد وخرج الناس لا تصدق نفسها من هذا المصيبة، سريع البديهة "فايز حلاوة"

غادة السمان
ماذا قصت شهرزاد

الكاتبة التي تجلس على حجر العفريت وتخيف من يهواها بالكتابة!!

في سنه ١٩٧١ أصدر أنيس منصور كتابه "يسقط الحائط الرابع"، وكان أول ناقد يكتب عن غادة السمان، وقال عنها أنها مثل كرة من القطن المشتعل تنطلق في كل مكان، إنها تبحث عن ماء يخمدها فإذا وجدت الماء رفضت مقاومة وصرخت..

ما الذي تريده؟! إنها تريد أن تظل مشتعلة وأن تحلم بالماء. وحينما كتب عن أعمالها "دليل الغرباء" و"عيناك

قدري" و"البحر في بيروت" وصفها بأنها أديبة غير منتمية.. وتريد أن تنتمي، وحينما نقل بعض عبارات من كتبها مثل "قال لي انصهري فانصهرت، قال انسكبي فانسكبت" "طالما بكيت لأنني سقطت وحدي ولم يرفعني أحد.. حتى أبي لم يرفعني لأنه هرب مع امرأة ضائعة مثلي!" "صوت حبيبي آت من الجبال إلى التلال على فراشي طلبت حبيبي فما وجدته" قال عبارته التي اشتهرت: "جاء أدب الأظافر الطويلة من لبنان!! أي جاء على يد غادة السمان وليلى بعلبكي، وكوليت سهيل.. الأظافر عليها طلاء وبرفان ولكن احذر.. إنها طويلة!"

ولكن د. غالي شكرى جاء بعده واهتم فقط بغادة السمان وأصدر عنها عن دار الطليعة في بيروت سنه ١٩٧٧ كتابه الجميل "غادة السمان بلا أجنحة" وقال وقتها الإخوة في الشام عبارة جميله لها معان: "قوصته السمان" أي قتلته باللهجة الشامية، والمعنى إشاعة حب بينهما، فلا يمكن أن يخصها وحدها بكتاب من غير الأخريات وبخاصة ليلى بعلبكي!! مع أنه عرف باقي أديبات بيروت ودمشق قبلها في كتابه "أزمة الجنس في القصة العربية" سنة ١٩٦١ ولكنه في طبعاته الأربعة غير وبدل فيه ولم يضف إلى من كتبوا عن الجنس غادة السمان.. عجبي!!

المهم اعترفت بعلاقة حب بينها وبين غسان كنفاني.. هذا الاعتراف قلب الدنيا أنها قالت فيه "لا أستطيع الادعاء.. دون أن أكذب.. أن غسان كان أحب "رجالي" إلى قلبي كامرأة كي لا أخون

حقيقتي الداخلية مع آخرين سيأتي الاعتراف بهم بعد الموت" إذن فأنت الفتاة الجالسة على حجر العفريت في ألف ليلة وليلة، والتي قابلت شهريار وأخاه ومارست الهوى معهما، وأظهرت لهما خيطاً من الخواتم لرجال آخرين فأعطاها كل منهم خاتمه.

المهم هذا الاعتراف هز الوسط الأدبي كله رجالاً ونساءً.. ماذا لو فعلها باقي الكتاب أو لو استهوت اللعبة الأدب النسائي؟! ولهذا قالت لها سناء البيسي: "أعترف بأنك ملكة الرواية بعد رواية "ليلة المليار" وكان هذا يكفي لماذا الآن وله زوجة وأولاد؟!

وقالت لها عبلة الرويني: "غادة تشعل سيجارتها" إنها تذكرها بصداقتها لنزار قباني، وبأنها فعلت فعلة إحدى بطلات قصائده _ أو أنها هي صاحبة هذه القصيدة _ أو ... والقصيدة عنوانها "حارقة روما" وتقول:

كفي عن الكلام يا ثرثارة

كفي عن المشي على أعصابي المنهارة

ماذا أسمي كل ما فعلته

سادية. نفعية

قرصنة. حقارة

ماذا أسمي كل ما فعلته

يا من مزجت الحب بالتجارة

والطهر بالدعارة

ماذا أسمي كل ما فعلته

فإنني لا أجد العبارة

أحرقت روما كلها

لتشعلي سيجارة

ولكن غادة السمان اختارت أن تصدر عن دار الطليعة في بيروت "رسائل غسان كنفاني إلى غادة السمان" راصدة ريع الكتاب لمؤسسة غسان كنفاني، وهو ما رفضته زوجته وأولاده أما ماذا فعلت غادة على لسان "عبلة الرويني"؟

ومنذ أكثر من عشرين عاماً أحب الروائي الفلسطيني غسان كنفاني غادة السمان وتبادلا الرسائل العاطفية، وبدأ يومها عاشقاً ضعيف القلب، لا يلتفت كثيراً لما يردده أهالي بيروت عن أنه ساقط في الخيبة، وأنه سيتعب من لعق حذائها البعيد، ومن أنها لا تكترث به، وأنه ملحاح كالعلق، فكل ما ردده ظل تحت ما يشعره حقاً.هكذا أعلن حبه ببساطة ووضوح، مؤكداً أن مشاعره لا يمكن فهمها في شارع الحمراء..

ومنذ عشرين عاماً نسف الإسرائيليون غسان كنفاني، فاكتملت أسطورته، هو المبدع الفذ الذي يبدأ منه تاريخ تبلور النثر الفلسطيني،

الذي نقل الخبر _ بتعبير محمود درويش – إلى مرتبة الشرف حين أعطاه قيمة الدم، وهو النموذج والمثال، نتاج رحلة العذاب الفلسطيني من السقوط المتمثل في وعاء المخيم، حتى الصعود المتمثل في واقعية البندقية.

نشرت غادة السمان رسائل غسان العاطفية إليها، دون نشر رسائلها هي إليه، ليظل الكتاب ناقصاً ومخالفاً لوجه الحقيقة.. تقول غادة إن رسائلها ليست في حوزتها، ربما لكي تبقى حقيقة الرسائل في حوزتها.. يبقى تاريخ العلاقة في وجدانها، لكنها التزمت الصمت والموقف الحيادي، فلم تعلق على رسالة واحدة.. لم تضف هامشاً، لم تفصح عن صورتها أو ملامحها يوم كانت، لتتيح أمام القارئ اكتمال المشهد.. "ثمة رجل يدعى غسان كنفاني" هكذا انتقت بحيادية تامة عباراتها وهي تشاهد الحريق.

وعلى حين تصورت غادة أن كتابها جريء جداً يتحدى مؤسسات الرياء الاجتماعي "وتطيب خاطره"، ويرفض الخضوع لزمن الغبار الذي يتكدس في الحناجر، ولا يمتلك جرأة المجابهة لأن فعله الحقيقي هو "فعل" غسان، وموقفه الحقيقي هو موقف "غسان" وجرأته الحقيقية هي "جرأة" غسان، بينما تتوارى غادة دون فعل، دون موقف دون جرأة.

أما من هو غسان كنفاني بطل هذه الرسائل؟

ولد غسان كنفاني في مدينة عكا بفلسطين عام ١٩٣٦ ومن عائلة متوسطة، انتقل مع أبويه إلى يافا، حيث تلقى دراسته الابتدائية في مدرسة تابعة لإرسالية فرنسية، وقبل أن يكمل عامه الثاني عشر قامت العصابات

الصهيونية بمهاجمة المدن الفلسطينية؛ فاضطر إلى النزوح مع عائلته المكونة من أبويه وجده وسبعة أشقاء إلى جنوب لبنان وأقاموا هناك فترة قصيرة من الزمن.. ثم انتقلت العائلة إلى دمشق.

في بداية الخمسينات التحق غسان بحركة "القوميين العرب" التي كانت قد طرحت شعار مناهضة الاستعمار، وفي عام **١٩٥٣** كتب قصته الأولى، وكان اسمها "أنقذتني الصدفة" وأرسلها إلى برنامج أسبوعي كانت تبثه إذاعة دمشق تحت اسم "ركن الطلبة"، وبالفعل أذيعت القصة مساء **١٩٥٣/١١/٢٤**. ثم نشر قصته الثانية في جريدة "الرأي" عام **١٩٥٣** واسمها "شمس جديدة" التي تدور أحداثها حول طفل صغير من غزة. في العام نفسه سافر غسان إلى الكويت ليعمل مدرساً، وهناك ومن خلال مشاهدته للصحراء ولأبناء شعبه وللعلاقات السائدة يختزن في ذهنه مئات الصور والفجائع الإنسانية، وليستفيد منها بعد عدة سنوات في الرواية الشهيرة "رجال تحت الشمس" التي كتبها عام **١٩٦٣**.

انتقل إلى بيروت عام **١٩٦٠**، حيث عمل محرراً أدبياً لجريدة "الحرية" الأسبوعية، ثم أصبح عام **١٩٦٣** رئيساً لتحرير جريدة "المحرر" كما عمل في "الأنوار" تحت اسم مستعار "فارس فارس" ومجلة "الحوادث" حتى عام **١٩٦٩** وقد نشر بالأخيرة رواية "من قتل ليلى الحايك" و"عائد إلى حيفا" ثم أسس مجلة "الهدف" الأسبوعية وبقي رئيسا لتحريرها حتى استشهاده.

في صباح الثامن من حزيران عام ١٩٧٢ استشهد غسان على أيدي عملاء "إسرائيل" عندما انفجرت قنبلة بلاستيكية ومعها خمسة كيلو غرامات من الديناميت في سيارته أودت بحياته الغالية.. تقول زوجته ورفيقة نضاله السيدة "أني":

"بعد دقيقتين من مغادرة غسان ولميس _ابنة أخته_ سمعنا انفجاراً رهيباً.. تحطمت كل نوافذ البيت.. نزلت السلم راكضة لكي أجد البقايا المحترقة لسيارته.. وجدنا لميس على بعد بضعة أمتار، ولم نجد غسان.. ناديت عليه، ثم اكتشفت ساقه اليسرى.. وقفت بلا حراك.. في حين أخذ فايز _ ابنه _ يدق رأسه بالحائط .. وليلى _ ابنتنا _ تصرخ: بابا .. بابا .. لقد قتلوك".

بقي أن نذكر أن المحققين وجدوا إلى جانب السيارة المنسوفة ورقة تقول: "مع تحيات سفارة إسرائيل كوبنهاغن". هذه الورقة لها معناها المحدد وهي تكشف عن جانب مهم من جوانب نضاله السياسي فماذا تعني هذه الرسالة الغامضة؟

ومن المعروف أن "غسان كنفاني" كان متزوجاً من فتاة دانمركية اسمها "أني" هذه الفتاة كان لها دور كبير في حياة غسان وفي نضاله السياسي ونشاطه الثوري. وقد اعتمد عليها غسان في توثيق صلاته بكثير من الأوساط الأوربية، بل واعتمد على مساعدتها له في الحصول على كثير من الوثائق المتصلة بواقع العرب في الأرض المحتلة. هؤلاء الذين أصبحوا أكثر من مليون ونصف مليون مواطن، بعد أن وقعت الضفة الغربية لنهر

الأردن تحت سيطرة الإسرائيليين. لذلك فإن هذه الورقة التي عثر عليها المحققون بمكان الانفجار تعني إشارة واضحة للدور الذي لعبه غسان من خلال هذه الزوجة المثقفة الوفية لزوجها، ولشعب فلسطين العربي، وتجدر الإشارة إلى أنغسان التقى مع "آني" لأول مرة وهي تقوم بزيارة لبعض الدول العربية لإعداد دراسة عن "اللاجئين الفلسطينيين"، وقد تعرفت على غسان باعتباره كاتباً فلسطينياً يمكن أن يساعدها في إعداد البحث وتقصي الحقائق، وانتهت هذه المعرفة إلى الزواج.

وبعد أكثر من عشرين سنة تفتح غادة السمان خزانة أوراقها الخاصة وتفض الغبار عن رسائل غسان إليها وتدفع بها للنشر. نعم.. يعرف كثيرون أن غسان كان يحبها، وأنه وقع في هواها في سنة ٦٦ _ على الأرجح _ حين كانا يعيشان في بيروت "هل يذكر أحد بيروت منتصف الستينات قبل أن تدهمها غاشية الحرب التي لم تبق على أحد أو شيء؟" ثم رحلت هي إلى لندن وبقي هو يكتب لها الرسائل من حيث يكون.. من تلك الرسائل اختارت غادة اثنتي عشرة رسالة فيما بين ٦٦و ٦٨ ونشرتها، مع صور خطية لها، ومقدمتين.

في المقدمة الثانية _ دعك من الأولى التي ليست سوى اقتباسات من الرسائل ذاتها تورد السيدة مبرراتها لنشرها هي ليست _ فقط _ الوفاء لعاطفتها، الغابرة والمتجددة نحوه بل وفاء لمبدع من بلادها اكتمل بالموت. ولا تنسى أن تضيف _ حرصاً منها على علاقات أخرى في الماضي والحاضر _ لا أستطيع الادعاء _ دون أن أكذب _ أن غسان كان أحب

الرجال إلى قلبي كامرأة، كي لا أخون حقيقتي الداخلية مع آخرين سيأتي دور الاعتراف بهم"

وهي تنشر الرسائل دون حذف أو تعديل طلقة في معركتها، التي لن تهدأ يوماً ضد مؤسسات الرياء الاجتماعي، ثم لكي تضيف بعداً إنسانياً جميلاً لصورة المناضل من الداخل قبل أن تدخل في سجن الأسطورة، وأخيراً تمارس السيدة غادة، لحظه صدق، فتضبط نفسها وهي "تكاد تتستر على عامل نرجسي لا يستهان به: الفخر بحب رجل كهذا. أهدى روحه لوطنه وانشد لي يوماً ما معناه: مولاي وروحي في يده.. إن ضيعها سلمت يده".

لكن قارئ تلك الرسائل "المنتقاة" تذكر غادة أنها ليست كل الرسائل، فثمة أخرى قد احترقت في بيتها في ٧٦" قد لا يستطيع أن يزيح عن نفسه أن هذا الدافع النرجسي هو أهم الدوافع كلها، فصورة العلاقة بينهما _ كما تعكسها الرسائل _ هي صورة تعلق جارف من طرف واحد، نراه ونسمع لهاثه ونقرأ كلماته الشاكية الضارعة الغاضبة الآملة، ونحس عذابه الجارف والطاغي لملك الطرف الأخر. بعبارة ثانية: أن صورة غادة _ كما تبدو في تلك الرسائل _ هي صورة فتاة طاغية الأنوثة، مرحة لعوب "في إحدى الرسائل يقول لها: أنت صبية وفاتنة وموهوبة". وأكثر الأوصاف التي يصفها بها تردداً هي "يا شقية" "تعبث بالرجل الذي أيقنت به من رسالته الأولى _ أنه يحبها، والذي تعرف عنه أنه _ كما يصف نفسه في رسالته الأخيرة هنا _ "كرة متشابكة من الأعصاب والجروح" وهي في

هذا العبث ليست عادلة تستخدم سلاحاً موجعاً. كان غسان زوجاً وأباً، وكانت هي حرة طليقة. في إحدى رسائله يحلل غسان علاقتهما مشيراً لهذه النقطة بالتحديد: "لقد استسلمنا للعلاقة بصورتها الفاجعة والحلوة، ومصيرها المعتم والمضيء".

وتبادلنا خطأ الجبن: أما أنا فقد كنت جباناً في سبيل غيري، لم أكن أريد أن أطوح بالفضاء بطفلين وامرأة لم يسيئوا إلي قط، مثلما طرح بي العالم القاسي قبل عشرين سنة، أما أنت فقد كان كل ما يهمك نفسك فقط".

وفي أكثر تلك الرسائل حميمة وسخونة وامتلاء بنزف القلب، تلك التي وجهها غسان لأخته الكبرى فايزة، وهي يعني غادة في كلمة من كلماتها يحاول غسان تحليل دوافعه الذاتية العميقة _ قدر ما استطاع الغوص والنفاذ _ التي تدفعه إلى التعليق بمن تهينه وتذله وتعبث به..

وفيها يروي واقعة صغيرة من وقائع هذا الإذلال: وقالت له في الصباح أنها ستأوي إلى فراشها في العاشرة من المساء، ولذلك "اذهب لبيتك باكراً اليوم" لكنها حتى منتصف الليل لم تكن هناك، ولا في الواحدة، ولا في الثالثة.."ثم هتفت لها فأبلغتني أنها كانت تشرب نبيذاً وأنها سهرت مع صديق.. وهذا ما كانت تريد أن تقوله هل تتصورين؟ كانت تجهد لتنال أذني كي تصب فيها اللعنة، ترى.. ما الذي يذكر هذه الإنسانة إلا الذل؟"

ولم يكن غسان ظالماً لها بل كان _ شأن العشاق الكبار _ يتلمس لها الأعذار والمبررات فهي وحيدة "لا تستطيع أن تردم الهوة بينها وبين العالم إلا بالرحال".. وهي تفضل التفاهة والمشاعر التي تمر على السطح. وأنا أعرف أن الحياة قد خدشتها بما فيه الكفاية لترفض مبدأ من "الأخداش" ولكن.. لماذا يتعين علي أن ادفع الثمن؟ (...) أمس صعقتني مثلاً حين قلت لها أنني أرغب في رؤيتها فصاحت: أتحسبني بنت شارع؟ كانت ترد على غيري، وكنت أعرف ذلك، ولكن.. ما هو ذنبي أنا؟"

ذنبك الوحيد، أيها العزيز غسان، أنك سقطت في هوى أنثى جميلة طاغية مشتهاة تجيد اللعب ويلذ لها أن تعبث بمن يحبها، كنت في حبك لها مستجيباً لأعمق ما في ذاتك وأنبل ما فيها: حين وجدتها في مأزق حقيقي قدمت لها جواز سفر وسعيت لها في عمل فكافأتك مكافأة رائعة: وكتبت لك رسالة بيضاء. اسمك في أولها: واسمها في آخرها، وتركت لك أن تملأ المساحة الفارغة كما تهوى!

ومن سياق الرسائل أيضاً تفهم أن ثمة صراعاً كان ناشباً بين الأنثى والكاتبة فيها "كان يصفها بأنها امرأة حتى كعب حذائها". ويخاطبها: "أيتها المرأة قبل ألف مرة من أن تكوني أديبة أو كاتبة".

وكان غسان يحاول أن يدفع صاحبته نحو الانحياز للكاتبة فيها، نحو النصف الأعلى لا الأسفل، يكتب لها مرة ضارعاً إليها أن تكتب له: "اكتبي أيتها الحلوة الذكية" تمسكي بهذا الشيء الذي يستطيع إلى الأبد أن يكون درعك أكثر مما يستطيع أي رداء مبتكر "وقصير" أن يفعل "..."

بالنسبة لك الحياة ملحمة انتصار تبدأ من العنق فوق، فتجعلي همك هناك "..." اطرحي، مرة وإلى الأبد، حيرتك الأنثوية المغيظة بين رأسك وركبتيك فتكسبي رأسك ورؤوس الآخرين وعظمة أنوثتك..

أخيراً أعود لملاحظة سناء البيسي لعلي أجد "غسان كنفاني" في روايتها "ليلة المليار" يعرف أنهم يطاردونه. يحدس حضورهم الذي يزداد اقتراباً، بالحاسة نفسها التي كانت تنبهه في السجن إلى الجلاد القادم ليسوقه إلى قاعة الاعتراف أو النسيان.."

"آه ذلك الأحمق الذي كنت أعشق، والآن لم أعد أعرف شيئاً.. أحببته بجنون ذات يوم لأنه رائع لا يقول إلا الصدق _ كما علمه والده القروي _ ولم أكن أدري أن مبرر حبي له سيتحول يوماً إلى مبرر بؤسي".. فهل هو خليل في روايتها "ليلة المليار"؟! سناء البيسي أدرى!!

الحب الذي لم يفز فيه أحد!!

- نعم حبي... وضع فوق أقوال هدى شعراوي علامة "×"
- امرأة لم تجرب الحب.. امرأة لا أصدق لها ما تقول!!
- إذا لم تطبق مبادئك على نفسك؛ فأنت ليس لك مبادئ!!
- يا زعيم الأمة أنها تطلب من الملك التدخل ضدي!

فاطمة سري

هذه أقوال المطربة الممثلة فاطمة سري، ضد الزعيمة النسائية هدى شعراوي.. أما السبب فهو ابن الزعيمة، "محمد شعراوي" الذي أحب الممثلة وطاردها وضايقها وارتكب معها الفاحشة وأغواها بماله وجاهه، فأحبته!! وبهذا الحب وضعت علامة "×" على كل ما كانت تنادي به هدى شعراوي للمرأة فقد قالت له: "تتزوج راقصة!! هو فيه مطربة ولا ممثلة شريفة!! حب إيه ده اللي ينسيك مستقبلك ده أنت ممكن تكون وزير؟!"

ثم حاولت الزعيمة إغواءها بالمال فأعطتها المطرية درساً في الأخلاق!! أرسلت له علي بك سعد الدين "سكرتير وزارة الأشغال" بألف جنيه، فقالت له: "وهل هذا يرضي الله؟!" فانصرف وأرسلت لها المحامي الكبير

"الهلباوي بك" بأربعة آلاف فألقتها في وجهه وقالت له أنت محامي أم قواد.. إنني في إمكاني أن أنكر نسبي لابنة محمد شعراوي، ولكنني أخاف إلهاً عادلاً سيحاسبني يوماً عن حقوقها، ثم أني أريد أباها نفسه أن ينكر النسب وأظهرت له ورق..

إقرار "أقر أنا الموقع على هذا محمد علي شعراوي نجل المرحوم علي باشا شعراوي من ذوي الأملاك ويقيم بالمنزل شارع قصر النيل رقم ٢ قسم عابدين بمصر أنني تزوجت الست فاطمة كريمة المرحوم سيد بيك المرواني المشهورة باسم فاطمة سري، من تاريخ أول سبتمبر سنة ١٩٢٤ ألف وتسعمائة وأربعة وعشرين أفرنكية، وعاشرتها معاشرة الأزواج، وما زلت معاشراً لها إلى الآن، وقد حملت مني حملاً مستكناً في بطنها الآن فإذا انفصل حياً فهذا ابني، وهذا إقرار مني بذلك، وأنا متصف بكافة الأوصاف المعتبرة بصحة الإقرار شرعاً وقانوناً وهذا الإقرار حجة على تطبيقاً للمادة ١٣٥ من لائحة المحاكم الشرعية، وإن كان عقد زواجي بها لم يعتبر، إلا أنه صحيح شرعيا مستوف لجميع شرائط صحة عقد الزواج المعتبرة شرعاً"

محمد علي شعراوي/ القاهرة في ١٥ يونيو ١٩٢٥

وأعلن الصراع بين المطربة والزعيمة، ولكن الغريب تبادل الأسلحة، المطربة تستخدم المبادئ التي تنادي بها هدى شعراوي، وهدى شعراوي تستخدم أسلحة المغنواتية "نعم.. يا عمر.. وهات يا روح"

ـ أنا اسمي فاطمة سري، ولم أغير اسمي لفاطمة شعراوي كما فعلت حماتي، اسمها نور الهدى سلطان وتزوجت علي باشا شعراوي فأصبح اسمها هدى شعراوي!!

ـ إذا كانت تدعي أنني لا أحب محمد شعراوي، فلتقل لي هل كانت تحب هي علي باشا شعراوي الذي تزوج قبلها، وكان فرق السن بينهما ٤٠ سنة!!

ـ إذا لم أكن ربيت، فأنت لم تحسني تربية ابنك. لقد خطفني في سيارة وأنت تعلمين!!

وقالت هدى شعراوي: القذرة.. بتاعة مين.. ومين.. إنها لها ملف في الآداب.

وكتبت فاطمة سري خطاباً إلى هدى شعراوي أما نصه فقد نشره مصطفى أمين في كتابه "من واحد لعشرة"، وأعاد نشره عدة مرات

سيدتي: "سلاماً وبعد... إن اعتقادي بك وبعد لك، ودفاعك عن حق المرأة يدفعني كل ذلك إلى التقدم إليك طالبة الإنصاف، وبذلك تقدمين للعالم برهاناً على صدق دفاعك عن حق المرأة، ويمكنك حقيقة أن تسيري على رأس النساء مطالبة بحقوقهن، ولو كان الأمر مقصوراً على ما أحرجت مركزك، أنك أم تخافين على ولدك العزيز أن تلعب به أيدي النساء، وتخافين على مستقبله من عشرتهن، وعلى سمعته من أن يقال أنه متزوج امرأة كانت فيما مضى من الزمان تغني على المسارح، ولك حق أن

عجزت عن تقديم ذلك البرهان الصارم على نفسك، لأنه يصيب من عظمتك وجاهك وشرف عائلتك كما تظنون يا معشر الأغنياء، ولكن طفلة مسكينة هي ابنتي وحفيدتك، ابنة نجلك العزيز، والله يعلم، وهو يعلم، ومن يلقي عليها نظرة واحدة يعلم ويتحقق من أنها لم تدنس ولادتها بدم آخر، والله شهيد، وطالبت بحق هذه الطفلة المعترف بها ابنك كتابياً، قبل أن يتحول عني وينكرها وينكرني، فلم أجد من يسمع لندائي وما مطالبتي بحق وحقي كزوجة طامعة في مالكم، كلا! والله فقدعشت قبل معرفتي بابنك، كنت منزهة محبوبة كممثلة تكسب كثيراً، وربما أكثر مما كان يعطيه لي ابنك، وكنت متمتعة بالحرية المطلقة، وأنت أدرى بلذة الحرية المطلقة التي تدافعين عنها، ثم عرفت ابنك فاضطرني أن أترك عملي وانزوي في بيتي، فأطعته غير طامعة بأكثر مما كان يجود به، وما كنت لأطمع أن أتزوج منه، ولا أن ألد منه ولداً، ولكن هذه غلطة واسأليه عنها أمامي، وهو الذي يتحمل مسئوليتها، فقد كنت أدفع عن نفسي مسألة الحمل مراراً وتكراراً، حتى وقع ما لم يكن في حسابي هذه هي الحقيقة وانتهى الأمر"

وفي الجمعيات النسائية كان النساء يقلن "يخلق من ظهر العالم فاسد" هدى شعراوي تنجب ولداً بهذا السوء أما قصة الحب فلها بداية، فقد حدث ذات يوم أن دق جرس التليفون في منزل المطربة الممثلة فاطمة سري، وقال المتحدث أنه إبراهيم الهلباوي بك المحامي المشهور وأن زعيمة النهضة النسائية تدعوها لتغني في سرايتها في اليوم التالي في حفلة ساهرة، واعتذرت المطربة عن عدم الحضور لارتباطها بحفلة في تياترو رمسيس في

نفس الوقت، ألح الهلباوي بك بأن حضور المطربة مسألة ضرورية مهمة جداً، وذهبت فاطمة واستأذنت الأستاذ يوسف وهبي أن تغني في بداية المسرحية بدلاً من نهايتها فوافق، وبذلك تحضر حفلة هدى هانم شعراوي، وأذن يوسف وهبي، وبدأت السهرة ولاحظت فاطمة وهي تغني أن شاباً يقف في آخر الصفوف ينصت باهتمام غريب ويلهب يديه بالتصفيق، ولم تعرف فاطمة هذا الشاب، وشكرتها هدى هانم وأعطتها عشرين جنيهاً في مظروف.

وبعد ثلاثة أيام دعاها محمد شعراوي لتناول الشاي معه في فندق مينا هاوس ورفضت، وذهبت فاطمة تغني في صالة سانتي بحديقة الأزبكية ففوجئت بأن محمد اشترى كل كراسي الصالة لأصدقائه ومحاسيبه يهتفون لها ويهللون ومحمد شعراوي ينظر لها في صمت ووله، وبعد ذلك دعاها محمد شعراوي إلى وليمة في منزل المحامي الكبير إبراهيم الهلباوي ورفضت، وتابعها محمد من سهرة إلى سهرة، ومن حفلة إلى حفلة ومن كازينو إلى كازينو كان لا يتكلم بشفتيه كان دائماً يتكلم بعينيه وكانت عيناه بليغتين في التعبير عن الوله والشوق والحب والغرام، وذات ليلة أنهت غناءها فوجدته ينتظرها عند سيارتها فنهرته وانطلقت بسيارتها إلى بيتها وعند البيت وجدته هو يفتح باب السيارة وعادت تؤنبه وتوبخه على هذه المطاردة ووعد أن يفك سراحها إذا دخلت بيتها لتبدل ملابسها وتنزل تركب معه سيارته..

وصعدت إلى بيتها حائرة هل تنزل معه أم تتركه واقفاً على الباب؟ ولكن النظرة الحزينة المتوسلة في عين محمد دفعتها أن تغير ملابسها بسرعة وتندفع إلى الباب وتجلس بجانبمحمد في السيارة، وانطلقت السيارة والحب ثالثهما، وبدأت قصة الحب تتطور بسرعة تنتقل بين الإسكندرية والقاهرة، وكان حباً شريفاً بدأ بقبلة في السيارة، ثم حدث أن أشارت مجلة الصباح إلى هذا الحب فلم ينزعج محمد ولم يغضب وقال لها: "أريد أن تعرف الدنيا أنني أحبك!" وكانت فاطمة سري مطلقة من مهندس اسمه سيد البشلاوي رزق منها بولدين تركهما مع أمها، ولما عاد من بعثة دراسية في ألمانيا إلى مصر، وعلم بقصة الحب بين مطلقته ومحمد شعراوي ثار وانتزعهما من أمها.

تعذبت فاطمة لحرمانها من ولديها، وإذا محمد شعراوي يكتب لها شيكاً بمبلغ ضخم ثمن الأوقات السعيدة التي أمضياها معاً، فمزقت الشيك ورمته في وجهه، وداست بقايا الشيك بأقدامها وخرجت من البيت غاضبة، وغادرت مدينة الإسكندرية بأول قطار، ولحق بها محمد شعراوي في القطار التالي، وأسرع إلى بيتها واعتذر لها عن سوء تصرفه وعرض عليها الزواج واستدعى الشيخ محمد عطية محامي الدائرة ليكتب صيغة العقد.

وعارضت فاطمة لأن العقد عرفي وتريد عقداً شرعياً فطلب محمد شعراوى منها مهلة ليحول الزواج العرفي إلى زواج رسمي بعد استرضاء والدته هدى شعراوي، وشعرت بالحمل وقررت إجهاض نفسها، وذهبت عند الدكتور إبراهيم الشوربجي طبيب الولادة المشهور ليجهضها، فقال لها:

"إذا أجهضت نفسك فستقتلين نفسك"، ولجأت إلى الوصفات البلدية فمنعها محمد شعراوي وتمسك بالجنين.

وعلمت هدى شعراوي بزواج ابنها الوحيد من مطربة فثارت ثورة عارمة واتهمت ابنها بأنه يحاول قتلها بهذا الزواج، وأحاط به الكبار والعظماء والوزراء يضغطون عليه أن يفترق عن المطربة التي أحبها، فزواجه من مطربة سوف يلوث اسمه وسيقضي على مستقبله السياسي، فلا يمكن أن يكون زوج مطربة وزيراً، وسوف يسيء هذا الزواج إلى أسرة سلطان باشا وأسرة شعراوي باشا وهما أعرق أسر الصعيد، وأهل الصعيد قوم محافظون يأبون أن يتزوج ابن الباشا من راقصة ولا غانية، وأصروا أن وقوف امرأة على المسرح هو عمل فاضح في الطريق العام، وبدءوا يهددون فاطمة سري، وجاء موظف بوزارة الداخلية يقول لها: أنه سوف يلفق لها ملفاً في شرطة الآداب يتهمها بالدعارة، وتحدتهم فاطمة أن يفعلوا ذلك، وقالت لهم أنها ستطلق بنفسها الرصاص على أي وزير داخلية يقوم بهذا التزوير!

وفجأة استسلم محمد العاشق الولهان لأمه تماماً، وسافر معها إلى أوربا، ولكن الوله والهوى كان يغلبه فيرسل لزوجته فاطمة سري.. أرسل لها أن تلحقه في سويسرا.. وعلمت هدى شعراوي فانتقلت به إلى جنوا، وقال لها: "الحقيني في إيطاليا" وعلمت هدى أيضاً فسافرت به إلى لوزان.. وأثناء الجري والسفر والمراقبة الشديدة الصارمة من هدى شعراوي لمحمد ابن أمه

الذي يظهر الأدب والطاعة في حجرها، فإذا ترك الحضن الأمومي، تحول إلى عابث صعلوك يجري وراء النساء!!

وانتقلت فاطمة إلى عاصمة النمسا ووضعت مولودتها وأطلقت عليها اسم "ليلى محمد شعراوي" وأثبتت الولادة في القنصلية المصرية في فيينا بتاريخ ٧سبتمبر١٩٢٥. وتصادف أن كان مصطفى النحاس باشا المحامي يومئذ في فيينا فقابلته فاطمة وروت له القصة وقالت: أنها كذبت على محمد شعراوي، عندما قالت له أن الإقرار في مصر، فقد كان الإقرار معها في حقيبتها، فنصحها النحاس أن تذهب إلى محل زنكوغراف وتحصل على صورة مطابقة للإقرار، وتسلم زوجها صورة الإقرار وتحتفظ بالصورة الأصلية، ففعلت فاطمة تماماً ما نصحها به المحامي مصطفى النحاس! وأخذت فاطمة ابنتها ليلى إلى مصر وأخفتها عن العيون، وعاد محمد شعراوي إلى مصر وزارها في بيتها وسأل عن المولود، فأخبرته أنها طفلة أسمتها ليلى محمد شعراوي وأحضرتها له، فأظهر الأسف وقال لها: يا ليتها كانت ولداً! وإذ به يسألها عن الإقرار؟ وسألته: هل يهمك جداً الحصول على هذه الورقة؟ وقال محمد: بهذا الدليل تثبتين إخلاصك لي إلى الأبد، وكانا جالسين على كنبة في غرفة المائدة، فأخرجت فاطمة الورقة من تحت خشبة المقعد وسلمتها له، وظهرت الدهشة على وجه الزوج لأنه لم يكن يتوقع أن تفرط في هذا الإقرار المهم بهذه السهولة وفحص الورقة فحصاً دقيقاً فوجدها بخطه وبلون الحبر الذي كتبت به، ولم يتمالك نفسه وقال لفاطمة: "أنت أشرف امرأة في مصر"، ثم جثا على قدم فاطمة وقبلها، وطلبت منه فاطمة أن يمزق الورقة فرفض وقال: سأحفظها في مكان أمين

لترثني ابنتي إذا عاشت بعدي، ثم قبل فاطمة واحتضن ابنته وقبلها وخرج وهو يقول أنه سيعود في صباح اليوم التالي، ولم يعد أبداً.

اتصلت به فاطمة في التليفون فأنكر نفسه، فإذا وجدته انهال عليها سباً وشتماً وأغلق في وجهها التليفون. وأرسلت له "فاطمة سري" محاميها فهيم باخوم، فاجتهد في إقناعه باعترافه بابنته وتوسط أن ينهي المسألة على خير، ولكن محمد شعراوي قال له: سأرفع عليها دعوى تشهير؟! كان بالطبع وراءه هدى هانم شعراوي!!

وقالت فاطمة سري لمحاميها: "ابعث له بأنك ستدخل القضاء في هذا الأمر بعد أسبوع!!" وسلم محمد الخطاب لأمه هدى شعراوي، وقال له الهلباوي: "لا تخف فأنت متأكد أن أصل الخطاب الذي فيه الإقرار معك".. وقال له نعم؟! وفجأة ظهر محامي صحف وابن حظ ويعرف الفنانين ومن المعجبين بالأصوات الحلوة وبخاصة "منيرة المهدية" هو فكري أباظة قرر أن يقف بجوار فاطمة سري ويرفع صوتها الهامس واستطاع أن يحول قضيتها من قضية طفلة إلى قضية أمة، وطلب مقابلة سعد زغلول زعيم الأمة وقص عليه القصة وطلب منه أن يستدعي محمد شعراوي الطالب بالحقوق وعضو لجنة الطلبة التي تدين بالزعامة لسعد زغلول ليطلب إليه أن يعترف بابنته ولا يكون مثلاً سيئاً للشباب، ولكن سعد رفض أن يتدخل وقال أنه لا يحب أن يتدخل في المسائل الشخصية وزيجات وطلاقات أنصاره!! وعاد فكري أباظة إلى سعد يقول له: "إنني هذه المرة جئت لك لتحمي فلاحة مصرية من الدولة، إن عدلي يكن باشا

رئيس الوزراء وعبد الخالق ثروت باشا وزير الداخلية طلبا من وزير العدل أن يتدخل في هذه القضية ويضغط على القضاة"، وأجاب سعد أنه سوف يحقق في المسألة، واستدعى أحمد زكي أبو السعود باشا وزير الحقانية وسأله فأكد رواية فكري أباظة، وأضاف أن الملك فؤاد شخصياً طلب أن يكون الحكم لصالح هدى هانم وسأله سعد: وما رأيك أنت؟

قال وزير العدل: رأيي "أن هذا ظلم" قال له سعد: لو حدث هذا التدخل في القضاء فسوف تصبح المسألة سياسية لا شخصية، وسأقف بنفسي في مجلس النواب أطالب بإسقاط الوزارة فليس من حق إنسان أياً كان أن يظلم مواطنة ضعيفة، الحق معها! هذا اعتداء على الدستور"..

وتراجعت القوى الهائلة التي قررت أن تسحق المطربة، ووكلت هدى هانم أعظم المحامين لدى المحاكم الأهلية والشرعية في مصر، وأنفقت مئات الألوف من الجنيهات لتثبت أن فاطمة سري أفاقة ونصابة ومحتالة.. ولم تضعف فاطمة ولم تتردد أو تنهار كانت تدخل المحاكم وهي تحمل ابنتها فوق كتفها كأنها تحمل علماً يمشي خلفه الأنصار والأصدقاء! وكان وجه ليلى الصغير عجيباً لا تكاد تنظر إليه حتى تجد التشابه العجيب بين محمد وابنته نفسالعينين نفس الشفتين نفس النظرة، نفس الابتسامة!

كان وجه ليلى شعراوي أهم وثيقة رسمية تؤكد بالدليل القاطع أنها ابنة محمد شعراوي، واستمر الصراع سنوات وسنوات، معارك ومرافعات، وضغوط وتدخلات، وقضاة يصمدون للإغراء، ومحامون يتصيدون الأدلة والمستندات، وإذا بالمحكمة الشرعية العليا تحكم بأن ليلى هي ابنة محمد

شعراوي، وفي الحال قررت هدى شعراوي أن تطلب بنوة الابنة ونجحت في ذلك فتحت لها سرايتها وضمتها إلى صدرها وكأنها تعتذر لها، أما أمها فقد أبقتهاخلف الأسوار، وقالت لمحمد: انس الموضوع.. لا عودة للماضي، وقابلت هدى شعراوي فاطمة سري وقالت لها لن أحرمك من رؤية ابنتك وهذا كل شيء وكل ما أوعدك به!! وقالت لها فاطمة سري أخذتي رجلي الذي أحببته على مهلي، حتى ضعفه أحببته والآن تأخذي ابنتي، وقالت لها أو لم تقل كان هناك الخادم النوبي يوصلها إلى الباب والمعنى الزيارة انتهت..

وفي الحديقة تمتمت المطربة بدعاء وهي تنظر إلى السماء، وفي الوقت الذي كانت فيه ليلى محمد شعراوي في أمريكا تتعلم، كان أبوها يدخل في قصة جديدة، إنه يعشق الفن، وهذه المرة مع الراقصة أحلام وزواج على سنة الله ورسوله بفرح ورزق منها بثلاثة أولاد.

وقال الناس "آه لو عرفت هدى شعراوي .. اللي ما يرضى بالخوخ .. يرضي بشرابه!!"

ولم تعلم هدى هانم بالكارثة الجديدة فقد ماتت بالسكتة القلبية، وهي جالسة تكتب بياناً في فراش مرضها تطالب فيه الدول العربية بأن تقف صفاً واحداً في قضية فلسطين. ولم يتم من البيان سوى ثلاثة سطور وسقط القلم من يدها وأسلمت الروح!

وفيما بعد كانت ليلى محمد شعراوي التي أصبحت دكتورة، لا تعرف بيتاً إلا عند أمها المطربة فاطمة سري اسم على مسمى!!

***

وضع قدميها على أعتاب الفن

فاطمة رشدي الحب عن طريق الفراخ والملوخية!!

فاطمة رشدي لا تزال تعيش بيننا، في غرفة واحدة في مدينة نصر، لا تملك إلا معاشاً صغيراً تعيش منه كالفقراء "معاش السادات"، وأخذت عنوانها من الصحفية الزميلة "وفاء الغزالي" وقال جيرانها:

إنها غير موجودة وإني من الممكن أن أقابلها في فندق كروان في شارع الجمهورية بالعتبة. فندق ١/٢ نجمة أقصد درجة ثالثة تمكث فيه أربعة أيام من كل شهر لكي تكون قريبة من البنك عند صرف المعاش حيث لا تنجح في صرفه من الزحام من أول مرة!!

وعند الفندق قابلتها وقالت لي: أنها أقسمت بألف يمين ألا تقابل صحفياً، لأن أحدهم سرق منها كل مذكراتها.. جلس إليها ست عشرة ساعة، وسجل على عشرة شرائط وأقنعها بأن ذلك سيكون بمقابل مادي كبير وانصرف وعلى حد قولها "لم تطل لا عنب الشام ولا حمص اليمن!!" وأستغرب جداً لأن هناك بالفعل في الأسواق كتاباً عن حياتها صدر من أكثر من عشر سنوات ولأن مذكراتها منشورة في جريدة الأنباء الكويتية.. وانصرفت!

وآه يا زمن.. سارة برنار الشرق التي لم تستمتع فنانة بالمال والحياة مثلها تصبح فوق السطوح!! أهذه حكايتك يا من فعلتها مع شفيقة القبطية، وحكمت فهمي، وها أنت تدور على فاطمة رشدي!!

إن فاطمة رشدي أو "بطاطا" كما يطلقون عليها أهل الفن، هي المرأة ذات الذكاء الفطري والطموح الذي لا يعرف المستحيل، راهنت على حصان كهل فازت به ومعه بالسباق!! تزوجت وهي في الخامسة عشرة من عمرها من "عزيز عيد" وكان وقتها في الخمسين من عمره ولعبت به وبحياته، وجعلت الرجل الذي كان أستاذاً لروزاليوسف ويوسف وهبي وكل أهل المسرح الكبار، راهب الفن الذي يعرف سر المسرح ويملك عبارة على بابا السحرية "افتح يا ..." فيفتح له المسرح أسراره ويظهر له جواهره وألماظه.. جعلته طفلاً يحبو في عالم الهوى والحب!!

فعزيز عيد يحول القصص لمسرح ويترجم المسرح الغربي فيجعله مصرياً ثم إنه يمثل، ويحب أن يخرج بعض مسرحياته وقد فعل، فإذا لم يجدوا مسرحية كتب هو أروع المسرحيات.. كان يكتب التراجيدي ويكتب الكوميدي!! أسماه "يوسف وهبي" "الملك ميداس" لأنه يحول أي شي إلى مسرح.. تماماً كما كان يفعل الملك ميداس في الأسطورة يحول كل شيء "لذهب"..

هذا الرجل صبغ شعره بالأكسجين لهذه الصغيرة الجميلة فاطمة أو بطاطا، وأحضر لها ١٣ معلماً ليعلمها القرآن والكتابة والفن والتاريخ وقام هو بنفسه بتعليمها المسرح وفوق ذلك فعل الحب به ما فعله مع

عمر الشريف أعلن إسلامه وأصبح اسمه "عزيز الدين عيد" وقال عبارة جميلة "الدين لله، ولكن فاطمة رشدي يجب أن تكون لي!!" مع أنها قالت في كتابها الذي سجلت فيه مذكراتها وعنوانه "فاطمة رشدي بين الحب والفن": "بصراحة أنا لم أحب في حياتي رجلاً بل أحببت المسرح فقط؛ فحبي لعزيز عيد هو الظاهر، أما الحقيقة حبي للمسرح".

مع أن عزيز عيد لم يقدم لها شبكة وإنما هي التي قدمت له ملوخية وفرخة، وبفهمها الفطري البسيط لمراهقة اعتمدت على أن الطريق إلى قلب الرجل معدته فملأتها له!! قالوا لها: أنه يعيش في غرفة صغيرة في المسرح يقرأ ويكتب المسرحيات ويخطط المشروعات وينسى موعد الغداء ولا يذكره إلا في العشاء. فماذا فعلت؟! سرقت فرخة وطهتها لها أمها على ملوخية ولفتها في جريدة وارتدت ملاءتها اللف وراحت تطعم الرجل الكهل بيديها الصغيرتين ثم دعته للسينما.. وقال لها أنه لا يرى إلا المسرح!! ثم أنهى عناده مع أول تبويزة منها وجلس بجانبها، دخلا للسينما على طريقة العقاد في روايته "سارة" من أبواب مختلفة وأوقاتمختلفة ولكن على كرسيين متلاصقين!! وحينما خرجا تجرأ كثيراً عزيز عيد وجلس بها علناً على "قهوة الفن" وكأنه يعلن مولد نجمة وقال لها: ما هي أمنياتك؟! قالت: أن أكون روزاليوسف!! وقال لها: ولكن ذلك سيحتاج إلى اقترابي وتعليمك.. و.. و.. وتزوجها!!

ويقال أنه أخذ يدربها سراً على مسرحية "الذئاب" قبل أن يقدمها ليوسف وهبي بعد أن أدخل عليها ما يريد من تعديلات تظهر كل ما في

فاطمة رشدي من قدرات.. ولكن يوسف وهبي لم يبتلع الطعم وقال له: الحب أعماك يا عزيز يجب الفصل بين الحب والفن.. فاطمة تصلح لحبك ولكن لا تصلح لفنك ولكن عزيز العاشق الولهان قال عبارة شمشونية: "أنا أو المسرحية إذا سقطت المسرحية أستقيل"، وقال له يوسف وهبي: ومن يمثلها أمام هذه الطفلة!! وشعر عزيز بالتراجع أنه كان يريد يوسف وهبي نفسه، ولكن لا تراجع ليكن الممثل "أحمد علام" فهو مكتشفه وصاحب فضل عليه.. وفي أول ليلة نجحت المسرحية نجاحا أذهل يوسف وهبي وجعله يخطط بنفسه لمسرحيات أخرى تجمع بينهما؟؟

وواصلت فاطمة رشدي نجوميتها وقررت أن تخرج على النص المكتوب رأت أن تصبح المسرحية أجمل بكسر الحواجز بينها وبين أحمد علام وتصادقا، ولعبت به. ويقول عن ذلك مصطفى أمين: "كانت فاطمة رشدي في فترة المراهقة وهذه الفترة تحب فيها الفتاة الرجل الأب أكثر من الرجل العاشق فأحبت الفارس في أحمد علام، ومات الحب يوم أن أعاد علام الحصان إلى صاحبه وفضل ركوب الترام!!" أي يوم نهاية المسرحية وعادت فاطمة لعزيز ومعها أنواع أخرى من الطعام وألوان أخرى من الحنان لتسكن به ألمه وتسكن غيرته!!

ثم اقتربت من التابعي لأنه كان الكاتب الكبير والناقد الفني للأهرام وكان يكتب في الفن تحت اسم "حندس"، كان اقتراباً بقصد شراء الود، ليكتب عنها، ونجحت في ذلك محاولاتها، وأطلق عليها "سارة برنار الشرق" ولكنها رفضت دون جوانية التابعى المعروفة عنه، وانتهز التابعي

حادث اعتداء شاب على فاطمة رشدي[1]ومحاولة تقبيلها بالقوة أثناء عرض مسرحية لها أمام يوسف وهبي. واصطاد بقلمه في الماء العكر، وتعكر الجو بين عزيز عيد ويوسف وهبي. لقد نقل التابعي على لسان الشاب "أن يوسف وهبي يقبلها عيني عينك على المسرح فلماذا لا يعتبر ذلك "هتك عرض"!!" واستخدمت فاطمة رشدي محامياً كبيراً في هذه القضية هو الأستاذ لطفي جمعة!! بل أنها ضربت "حندس" بالشبشب في وسط شارع عماد الدين وفرشت له الملاية وهي تقول: بقي يا أما سارة برنار الشرق يا الممثلة التي خرجت بتجارب عن النص!؟!

وخرجت فاطمة رشدي وفي يدها عزيز عيد من فرقة رمسيس ولم يجدا إلا الجلوس على قهوة الفن، وبدأ سيناريو معروف عن الفنانين في ذلك الوقت، بيع أساس عش الزوجية الذي أسسه عزيز عيد بأكثر من ألفي جنيه سنه ١٩٢٥ وهو يقول: ولا يهمك يا بطاطا إنتي إلهة الفن.. والآلهة لا يجوعون!!

وجاء الريحاني يطلب من عزيز مسرحية كوميدية، وأن يتعاون معه كما فعل مع يوسف وهبي، ولكن عزيز قطع هذا الطريق وقال له: أنت مفلس مثلي ما فيش إلا يوسف وهبي بيدفع لأنه عنده كنز اسمه عائشة فهمي لا ينضب، وكان يقصد زوجة يوسف وهبي التي كانت أغنى سيدة في مصر وقتها!! وتدخلت فاطمة في الحوار لتقول إن عزيز لا يكتب إلا ما

---

[1] حدث نفس الشيء مع الفنانة "صابرين" أثناء عرض مسرحيتها "أولاد الشوارع" وكانت بطولتها ومعها محمد منير والموجي وكان هذا الحادث سبباً في قيام الرقابة بإيقافها!!

يصلح لها كممثلة، ولم يكن الريحاني لديه استعداد للمغامرة ببطاطا من المأساة إلى الملهاة.

ولم يرد عزيز، وفهم الريحاني أن الاتفاق يكون مع الست فانصرف وهو يردد "وراء كل عجوز بديعة مختلفة" يقصد بديعة مصابني وهي عقدة خاصة بالريحاني!!

وطالت الأزمة، وقال عزيز عيد: إن أربعمائة جنيها في يده تكون أكثر من مئات الجنيهات في يد يوسف وهبي، وأن ذلك كل ما يطلب، وبدأت فاطمة رشدي تسعى للحصول على هذا المبلغ بأدواتها الحديدية على مبدأ ميكيافيلي "الغاية تبرر الوسيلة" وجاء من يقول لها لقد وجد الحل؟! إنه تاجر قطن كبيراً كان يهوى الممثلة عزيزة أمير ثم هربت منه ورفضت العودة له وأنت تشبهيها تماماً، وقالت له: "وما الثمن؟!" وأجابها أنها مغامرة لا أعرف نهايتها؟! وقبلت وجاء المليونير التاجر "إيلي الدرعي" له أصول يهودية، يمتلك بنكاً بأسره له فرع في أمريكا، يتمتع بصحة جيدة، وأعصاب رجل المال القوي.. كان رجلاً أعطى ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، ولكن بطريقته فأعطى لعمله ما يستحق وأعطى لنفسه ما تشتهي من متعة وسرور، وكان يجيد ست لغات – إحداها العبرية بالطبع – ولا يعرف أحد ماذا أعطى بعد ذلكلله!!

قابلته في الفندق، فأعجب بها وقال لها: طلب واحد لك دون طلبات مني.. ووضع في شنطتها أربعمائة جنيها مصرياً وودعها وهي تنصرف.. ولكن فاطمة لم تكتف؛ ففي اليوم التالي ذهبت إليه لتشكره

فطلب منها أن تصحبه ليشتري لها هدية، وكان الرجل عند كلمته إنه لا يميز معاملاته مع النساء عن سائر المعاملات "لا شيء مجاناً" وعندما انتشرت الشائعات جلست فاطمة لعزيز رقصت عليه القصة كاملة. وقال عزيز أنه سوف يطلقها حرصاً على كرامته وعزة نفسه ولكنه لا يزال يحبها لا يعرف ما يميت الحب أكثر مما سمع ولكن حبه لا يموت!! واتفقا أن يظل إلى جوارها كأستاذ. وأنه سيعود كما كان يغرق نفسه في دوامة العمل الفن والمسرح لعل ذلك يضمد الجراح!!

وبسرعة كان "إيلي الدرعي" يفتح حسابه بالبنك الأهلي لفاطمة رشدي بعشرة آلاف جنيها "يمكن أن يضربها في مائة الآن لتعرف قيمتها" واستأجرت فاطمة مسرح دار التمثيل العربي واستطاعت يد عزيز الساحرة المدربة أن تخلق منه مسرحاً عظيماً وقدمت الفرقة خمس عشرة مسرحية بتمويل من هذا المليونير منها "غادة الكاميليا" و"النسر الصغير" و"حواء"، وكتب لها عزيز عيد مسرحية "بسلامته بيصطاد" حكى فيها حكاية المال والجمال، وكيف تسرق الثروة الناس من الناس ومن أنفسهم!! وأوقف المليونير المسرحيات التي يكتبها عزيز، وأبقاه كمخرج أي من وراء الكواليس وشجع فاطمة رشدي على التعاقد مع غيره منالكتاب.

وأصبح أحمد شوقي أمير الشعراء يحضر كل يوم إلى فرقة فاطمة رشدي؛ فقد كتب لها رواية "أمير الأندلس" و"مجنون ليلى"، وأعادت تمثيل "كيلوباترا" بعد أن مثلتها منيرة المهدية، وأمام عبد الوهاب أيضاً!! فقد قال عبد الوهاب لفاطمة رشدي أنه لا يجد نفسه مناسباً الآن للعمل

بالمسرح الغنائي؛ فشكته إلى أحمد شوقي، واعترف له عبد الوهاب بأنه معقد من هذه المسرحية بالذات لأنه حينما مثلها مع منيرة المهدية وكان وزنها وقتها "١١٠ك.م" كانت تتعمد كل ليلة في نهاية المسرحية بدلاً من أن ترتمي إلى جواره من أثر سم الثعبان أن ترتمي فوقه وإنه في إحدى المرات أغمى عليه!! ومرة كان حيطلع في الروح!! فقال له شوقي مثلها يا محمد وأكيد أنت تتمنى أن تفعل مع فاطمة، ما فعلته منيرة المهدية!!

وتجرأت فاطمة رشدي أو بسبب ذلك تجرأت ونشرت في مجلة الكواكب ١٩٦٣ أنها كانت في حالة حب مع عبد الوهاب وأحمد شوقي وقالت إن أحمد شوقي كان يجلس إليها ويدرس لها ويرتاح لشخصيتها وأنه أحبها كما أحب من قبل الفنانة عزيزة أمير ولكنه كان كتوماً ويحلم بالباشاوية فلم يترك نفسه على سجيتها مع انطلاق عواطفه!! ثم أنها كانت تشبه جداً عزيزة أمير في ذلك الوقت!!

وحدثت الأزمة العالمية وبأموال المليونير بدأت تعمل الحفلات المجانية للطلبة، وتمثل الروايات المقررة عليهم لترويج المسرح ولم تفز من ذلك إلا بلقب "صديقة الطلبة"، وبدأت تفكر في السينما ولكن المليونير المتيم مات بعد أن أنفق على فنها ثروة تقرب من نصف مليون جنيها، وتركها وهي بين يدي المخرج كمال سليم ليجعلها بطلة لفيلمه "العزيمة"، وهو من الأفلام التي يؤرخ بها للسينما المصرية، ولأن كمال سليم جاء في وقت خلا فيه الملعب من مال، جاء الحب وتزوجته وأحبته حب القصة الأخيرة كانت تحبه وهو يحب رجولته وغار عليها، وكمم حريتها، وقال لها:

أنت كالفرسة تجمح إذا لم يشد اللجام!! وحتى حينما جاء لها عزيز عيد يشكو لها أنه أسند له دور عربجي في فيلم "إلى الأبد" وهو أبو المسرح وأنه لولا الحاجة ما عمل، لم تتحرك وقالت له: كمال هو المخرج في السينما؟! وخرج من عندها عزيز مريضاً.

وبعد يومين من الحادث فوجئت بمرض أمها فاشترت لها مقبرة تحسباً لما يمكن أن يكون، ولكن عزيز عيد كان موته قبل الجميع، فدفن في المقبرة التي اشترتها هي لأمها فسبقها إلى النهاية؟!

لقد شعر عزيز بأن فاطمة ليست مع كمال سليم كما كانت مع كل الرجال، إنها لا ترضي غرورها وطموحها، ولكنها ترضي قلبها، شعر بأنه يجب أن يرحل..

ولكنها من نفس الكأس شربت، طلقها كمال سليم حينما طلبت منه أن تكون بطلة أفلامه، وهو يقول: لست عزيز عيد.. نعم ليس كمثل حب عزيز عيد لها!!

فنجان البن..هو حبي المحوج

الحب وحده جعلني أنسى الفلك والنجوم!!

فاتن حمامة

كانت أمها تعتقد أنها أجمل طفلة في العالم، ومنذ ولادتها رأت أمها تقرأ الفنجان وتهتم به كثيراً، وشيء غريب كان يحرك أمها؛ ففي كل مسابقة تعلن لملكات جمال الأطفال، كانت أم فاتن تحمل طفلتها وتعتقد أنها ستفوز لأنها تراها أجمل فتاة في العالم. وذات يوم أعلنت مجلة "المصور" عن مسابقة لملكات جمال الأطفال، وألبست الأم ابنتها ملابس ممرضة وصورتها، ونشرت المصور صورة لفاتن بين عشرات الصور!!

ورأى المخرج محمد كريم صورة فاتن، فأرسل يستدعيها لمقابلته في القاهرة، وسافرت فاتن فرحة سعيدة، وقد اعتقدت أنها الطفلة الوحيدة في مصر التي اختيرت لتمثل في فيلم "عبد الوهاب" وعندما دخلت الأستوديو وجدت معها مائة طفلة أخرى!

وكانت اللجنة مؤلفة من محمد كريم وعبد الوارث عسر فاختاراها فوراً لدور "أنيسة" وبعد فيلم "يوم سعيد" أصبح اسم الطفلة فاتن حمامة على كل لسان، ولدت نجمة، تمشي في الشارع فيحيط بها المعجبون والمعجبات وتزغرد النساء.. لم يحدث أن نالت طفلة في الشرق هذا النجاح!! بهذه السرعة.. وبين مختلف الطبقات.

كانت فاتن تمشي في الشارع فيحيط بها المعجبون فأصيبت بالغرور، أصبحت ناطحة سحاب وكل من حولها علب ثقاب!! وأصبح الفن هو فاتن حمامة، منذ طفولتها وحتى شبابها، وفي نضوجها.. هيهاجس السينما المصرية، وحينما أراد مصطفى أمين أن ينصح الشباب بعدم زواج الممثلات كتب مقالاً عنوانه "لا تتزوج فاتن حمامة"؛ فقد رأى أنها هي الممثلات والفن.

وحينما عولج فيما بعد في مستشفى الدكتور عبد الله الكاتب، وعلم أن فاتن حمامة كانت تعالج بها طلب أن يعالج على سريرها، وكتب مقالاً آخر يقول أكتب لكن من سرير فاتن حمامة، وبعدها جاء الناس يطلبون العلاج على سرير فاتن.. ولجأت إدارة المستشفى لحيلة وضعت في كل قسم سريراً أسمته باسم "فاتن حمامة"!! وبالتالي إذا كنت تعالج من الأسنان ستجد لها سريراً، وإذا كانت الأوجاع في القلب ستجد سريراً أيضاً، وهكذا لكل فروع الطب!!

ولكن المقال لم يعجب فاتن، وذهبت للأخبار والشرر يتطاير من عينيها!! وقالت لمصطفى أمين: "لقد شوهت سمعتي؟! إن إنساناً لم يجرؤ أن يقترب من شرف فاتن حمامة.. هل كنا معاً في سرير واحد لتكتب مذكراتك منها!!؟"

وعرف مصطفى أمين أنها لم تقرأ المقال، فقط رأت العنوان، وسمعت كلام أمها واستسلمت لأقوالها في أن ذلك يخدش الحياء!! وعرف

بأنها كبرت جداً حتى على النصيحة..كبرت على أساتذتها وصديقاتها، فلا يمكن أن يكون فكر فاتن حمامة بهذه الرجعية!!

وكانت أوامر مصطفى أمين لمحرريه بعد ذلك، أكتبوا ما تشاءون عن فاتن حمامة، لكن لا تذكروها في العنوان، إنها لا هي ولا أمها تقرأن سوى العنوان.. وتترك الباقي للآخرين!!

لكن فاتن حمامة التي كانت لا تهتم إلا بعنوان المقالات كانت تهتم بعلوم أخرى عرفتها من أمها منذ اليوم الذي وجدت فيه أمها تقرأ الفنجان كانت مهتمة: بعلم الفلك والنجوم!! وفيما بعد أصبح معروفاً أن تسأل البطل والعاملين في أفلامها عن أبراجهم وترتب حساباتها على هذا الأساس!!

كانت فاتن حمامة من برج الحمل، برج ناري متقلب يحكمه المزاج، وفجأة أصبحت تهتم ببرج الثور.. برج ترابي ثابت تحكمه الزهراء!! وقالوا لها: إن الثور لا ينفع لها.. إن التراب يطفئ النار.. وقررت أن تتخلى عن علم الفلك وعن كلامه.. (عشان خاطر برج الثور).. إنه القلب وأحكامه.. إذا أحببنا عمينا وطرشنا.. ولم نعد نرى غير شيء واحد، وطريق واحد هو الحب!!

وكان ذلك أثناء فيلمها "أيامنا الحلوة"، ولم يكن من مواليد برج الثور من بين الأبطال الثلاثة أمامها في فيلم "عبد الحليم وأحمد رمزي

وعمر الشريف" سوى الأخير صاحب النظرة التي لا تقاوم.. "شريف" كما أصبح يطلق عليه في الغرب!!

كانت هناك أخبار عن قصة حب بدأت تنسج خيوطها بين فاتن حمامة وعمر خلال ظهورهما لأول مرة معاً في فيلم "يوسف شاهين" صراع في الوادي، ولكن فيلم حلمي حليم "أيامنا الحلوة" أكد كل شيء خلال العمل في الحارة التي بناها المخرج ليصور لقطات من فيلمه، كانت العيون تتسع على آخرها لتراقب عمر وفاتن.

ولم يكن فيلم "أيامنا الحلوة" ينتهي حتى تزوجت فاتن حمامة عمر الشريف، التقى برج الحمل ببرج الثور ضد كل قواعد البروج، وأصبح ما كان يتردد همساً من شائعات الحب بينهما واقعاً قائماً فعلاً. كانت فاتن قد طلقت قبلها من عز الدين ذو الفقار، وكان عمر الشريف أشهر إسلامه، وتخلى عن ديانته المارونية المسيحية لكي يتمكن من الزواج منها، وتزوجها فعلاً.

واعتقد عمر الشريف أن نبوءة العرافة السكندرية قد تمت بنجاحه في السينما وزواجه من فاتن حمامة ألمع النجوم، فقد فتحت له العرافة حينما قرأت كفه: "أعتقد أنك ستكون ملكاً ومشهوراً.. حاجة زي كده.. إن خطوطك تلمع!!".. ولم يعلم بأن الخط كان بدايته فاتن حمامة!!

وأحدث خبر زواج فاتن حمامة وعمر الشريف عاصفة هوجاء في الوسط السينمائي، وبين الجماهير في مصر والعالم العربي؛ ففي الوسط

السينمائي كان المخرج يوسف شاهين بعد أن أخرج فيلم "صراع في الوادي" لفاتن حمامة وهي مطلقة بالفعل من المخرج عز الدين ذو الفقار، يتصور أنه أقرب الناس إلى الزواج من سيدة الشاشة العربية، وكان في ذهنه أن هذا الزواج لو تم سيحقق معجزة سينمائية، واعتبر ما أقدم عليه عمر الشريف خيانة شخصية له من الفتى الذي صنع هو له مجده كبطل أمام فاتن حمامة في فيلم صراع في الوادي، وفجأة حاول يوسف شاهين الانتحار، ونقل إلى المستشفى وقد قطع شريان يده كرد فعل لفشله في حبها والزواج منها، ولم يكن هو وحده الذي يفكر في الاستحواذ عليها (كان هناك "رمسيس نجيب" الذي أنتج لها فيلم "ارحم دموعي"، و"الطريق المسدود") وظهرت في الصحافة المصرية والفنية موجة ضد فاتن حمامة؛ لأنها تزوجت من شاب اسمه "ميشيل شلهوب" اتهموه باليهودية، واتهموها بأنها تخلت عن انتمائها لجماهير مصر التي أحبتها.. كان هناك طابور طويل من المتشنجين الذين عالجوا زواج فاتن من عمر على هذا النحو، ولكن الناس لم يكونوا يعرفون "فاتن حمامة"، ولا برج الحمل!!

كانت أدوار فاتن في تلك الأيام أدوار البنت المغلوبة على أمرها، المظلومة التي لا تستطيع أن تخرج من بيتها أو تتزوج من تحب، ولكن الشيء الغريب في حياة فاتن حمامة أنها لم تتأثر في حياتها الخاصة بأفلامها السينمائية، فثارت وهي في السادسة عشرة على أهلها، وخاضت معركة هائلة من أجل أن تختار الرجل الذي تتزوجه، واصطدمت بأسرتها وقالت يومها قولة مشهورة "إنني قبلت على مضض أن تختاروا لي ملابسي ولكني أرفض أن تختاروا لي زوجي!!"

واختارت زوجها برغم معارضة أهلها، ولكن هذا الزواج فشل، وظهر أن أهلها كانوا على حق كان عمرها ١٦ سنة وكان قد مضى عليها سبع سنوات نجمة!! وعندما دخلت الزواج فوجئت أنها دخلت العنوان الخطأ، وأنها كانت فقط تريد أن تلبس فستاناً عارياً وحذاءً بكعب طويل، وسرعان ما عادت إلى أسرتها التي كانت شديدة الضغط عليها، غسلت وجهها من الكحل والبودرة وتركت الزواج، وعادت تحت سيطرة أمها من جديد.

فالضغط يجعل برج الحمل قوياً.. إنه برج ناري تعطيه المريخ قوة الثورة، ولذا لم يهمها ما حدث، ولا كلام الناس، وأمسكت في برج الثور بيدها وأسنانها أقصد عمر الشريف!!

وفي أواخر سنة ١٩٥٤ انتقلت فاتن حمامة وعمر الشريف إلى فيلا من فيلات برج الزمالك، وفي ذلك الوقت زارتها ممثلة يابانية مشهورة اسمها "ماتشيكاكايو" كانت تريد أن تلتقي ببعض نجوم السينما المصرية وبخاصة "فاتن.. أو همامة" كما كانت تنطقها.. وزارتها في فيلتها بصحبة الصحفي عبد النور خليل سكرتير تحرير مجلة "أهل الفن" وقتها، وفي هذه الزيارة أثناء الحوار بين النجمتين فاتن واليابانية أطل من قمة الدرج الحلزوني عمر الشريف، وكان نظام أبراج الزمالك وقتها قد بني على أساس فيلا صغيرة من طابقين في كل شقة، وبينما يتهاوى عمر الشريف في قميص نصف كم مفتوح الصدر وعيناه الثابتة تنظر في ثقة حدث شيئاً في الجلسة.. استطاع بلباقة أن يستحوذ على اهتمام "ماتشيكاكايو" وبخاصة

أنه يجيد الانجليزية وأكثر من لغة أخرى، وأظهرت فاتن حمامة التملل في الجلسة، واستأذنت أكثر من مرة بحجة العناية بابنتها من "ذو الفقار" المعروفة بنادية التي كانت وقتها في سن السادسة، والتي ظهرت في السينما في نفس سن أمها عند ظهورها في فيلم "يوم سعيد"، ظهرت نادية مع أمها في فيلم "موعد مع السعادة". ثم أن عمر الشريف فعل شيئاً اعتبرته فاتن حمامة يدل على الجليطة منه؛ فقد قال لما تشيكاكايو أن شعرها درجة سواده لا يمكن أن تكون ليابانية وإنما لمصرية جداً، وكانت وقتها فاتن قد صبغت شعرها بلون برونزي، فظهر وكأنها لا تعجبه!!

وحكى عبد النور خليل ما سمع للورداني رئيس تحرير المجلة، وكلفه الورداني بأن يكتب مقالاً يقول فيه: أن صبغ فاتن حمامة لشعرها برونزي يعني أنها قد انتقلت من العالم الذي عرفه الجمهور إلى عالم آخر، وأنها لم تعد بنت البلد والناس الطيبين في الحارة، وأن ذلك ليس بسبب الزواج لأن عمر الشريف يحب لون الشعر الأسود المصري حتى في اليابانيات!!

وبدأت أشياء أخرى تحدث غير الخلاف بين برجي الثور والحمل خلاف بين تربية ونشأة كل من فاتن وعمر.. طقس مختلف، وحياة مختلفة.. لم يكن الحب أقوى منها فعمر الشريف ابن أسرة رومية متحررة، حتى أنه لم يحدث في علاقاته بعائلته شيء حينما أعلن إسلامه، فالكنيسة لم تكن في حياته مربط الفرس!! ثم أنه متعلم في مدارس أجنبية وسبور قوي في مسائل المرأة والرجل!!

وفاتن حمامة ابنة أسرة متوسطة وأم برجوازية متزمتة، من عابدين في منزل بشارع إسماعيل أبو جبل وتعليمها توقف على إرادتها، وهي عندها حدود وقواعد وأصول لما يجب أن يكون بين المرأة والرجل ليس على مستوى الفعل ولكن على مستوى القول أيضاً!!

وجاءت الفرصة لعمر الشريف، فاهتبلها.. "هذا التعبير من تعبيرات اللغة العربية للدكتور طه حسن"، ويقصد بها أنه أمسك بالفرصة بيديه وأسنانه، نسي حبه من أجل مجده، نسي تضحيات برج الحمل من أجل برج الثور، نطح الثور وسافر وبدأ طريق العالمية بفيلم "د. زيفاچو"!

إن الحوار الذي ظهر فيما بعد، وبعد حوالي ١٤ سنة من الفراق بين فاتن حمامة وعمر الشريف، بين محمود يس وفاتن حمامة في فيلم "الخيط الرفيع" هو أحسن تعبير عما قالته فاتن لعمر عند سفره، كان هذا الفيلم هو قصة ما فعلته فاتن وبرج الحمل، لعمر وبرج الثور، ولا يزال أفضل مشهد طويل وأحلى حوار في السينما العربية هو ما جاء في "الخيط الرفيع"!!

والحقيقة إن فاتن حمامة فعلت أكثر من الفيلم في الحقيقة، إنها سافرت وراءه، قائلة: ماذا يقولون ذهبت وراء من تحب؟! ولكن مع مرور الأيام ونهاية القصة.. قالت فاتن حمامة في شهادتها إنها تركت مصر في تلك الفترة هرباً من مطاردات صلاح نصر ورجاله!! ولكن التحفظ الوحيد على روايتها هذه، هو قلبها؛ فقد تركت مصر بعد أن رشح عمر الشريف لبطولة الفيلم العالمي "لورانس العرب" وبدأ يدخل في العالمية، ولما كانت

واحدة من الذين صنعوا عمر الشريف فقد أحست بعد انفصاله عنها وانطلاقه للعالمية بأن جرحاً قد أصابها في عمق، فقامت ببيع عمارتها في مصر الجديدة والتي لا تزال تحمل اسمها حتى الآن، وتركت مصر!

وحاولت أن تلحق بنفس القطار الذي ركبه عمر الشريف، مثلت في فيلم إنتاج "إيطالي إسباني" وصورت بعض مشاهده في المغرب، وكان دورها صغيراً في الفيلم، تماماً كدور أحمد رمزي في فيلم "ابن سبارتاكوس"، ولما فشلت في اللحاق بعمر والعودة له بدأت حرباً إعلامية نسائية. تثبت فيها أن عمر الشريف حرفوش وصل لقلبها، صعلوك جاء خطأ..

وانتشرت شائعة عن قصة حب بينها وبين المليونير السعودي الذي يعيش في تركيا "غازي شاكر"، وهو أشهر عربي وقتها في عالم السيارات، لكن الشائعة لم تكن محبوكة لأن غازي شاكر كان زوجاً لابنة "رياض الصلح" رئيس وزراء لبنان السابق وماتت الشائعة في مهدها!!

وعندما عادت فاتن لمصر بعد النكسة لم تجد ما تبرر به هجرها لمصر ومغادرتها لها إلا أن تقول شهادتها، ولكنها خارج التاريخ، لأنها شهادة بالعقل، وليست بالقلب!!

ومع مرور الوقت رد لها عمر الشريف الصفعة أو الإشاعة وظهر له كتاب عن حياته أو مغامراته مع الأخريات صوفيا لورين، وكلوديا كاردينالي، وغيرهن وظهر كدونچوان الشرق.. معشوق نساء الغرب، وأثبت أنه ليس الصعلوك أو الحرفوش الذي جاء خطأ في حياة فاتن

حمامة، بل هي التي جاءت في بداية الكتاب!! ولم تحتمل فاتن بعد الكتاب.. تململ برج الحمل. طلبت الطلاق رسمياً.. الانفصال لا يكفي؛ فلا أمل.

أما عمر الشريف فلم يتزوج.. إن له عبارة يكررها في أحاديثه الصحفية: الحب ممكن يكون إيطالياً إنجليزياً فرنسياً، ولكن الزواج لا يكون إلا مصرياً!! أو كل النساء تسلم لك بعد الزواج إلا ا،لمصرية يجب أن تسلم لها أنت نفسك بالزواج!! أو إذا كان الزواج محطة نهائية لا بد منها مع المرأة، فأنا أفضلها في بلدي مصر!!

أما فاتن لم تستطع إلا أن تتزوج، ولكنها بعد أن اكتوت بتجارب الزمن، استطاعت أن تفصل بين "فنها" و"حياتها الشخصية" وارتاحت أن تتزوج من شخص ليس له علاقة بالفن.. لقد جربت رجلين من أهل الفن.. فلماذا لا يكون الزواج الثالث من شاطئ آخر وتزوجت أستاذ الأشعة المرموق د. محمد عبد الوهاب، اسم فني ولكنه بعيد عن الفن أنه في الطب!!

وأصبحت لها عبارات متزنة متحفظة عن العلاقة بين الرجل والمرأة، مثل: الستر، القسمة، والنصيب، الاحترام المتبادل هو الأساس!! وأغلقت فيها بالقفل عن والد نادية عز الدين ذو الفقار، وعن والد "طارق" عمر الشريف، ولكنها لا تزال تتفاءل بيوم الأحد كمواليد برج الحمل، وإن كان يوم الثلاثاء هو أسعد أيامهم كما يقول طالعهم، وتعشق فنجان القهوة، وتحب أن تقلبه، وتبحث عمن يأتي ويقرأ الغيب المحوج!!

وهي لا تشرب القهوة إلا مع القريبين لها وتقول عبارة "حاشرب وياك" وتقول لك ممكن عشرة يشربوا شاي، ولكن عشرة يشربوا قهوة.. صعبة!! أنا أعتبر القهوة مشروباً له خصوصية. وفي سنة ١٩٨٧ شربت معها القهوة ونشرت عنها حديثاً نشر في مجلة "المجلة"!!

وأرجو ألا أعامل بنفس الطريقة التي عومل بها مصطفى أمين حينما كتب أكتب لكم من سرير فاتن حمامة، فما كتبته من قلب فاتن حمامة، ألف سلامة لهذا القلب، وهذه الإنسانة!!

الخاتمة

"يا ابن آدم.. أحبب ما شئت فإنك مفارقه"

والمعنى أن الحب ليس لحظة أبدية، وإنما سيأتي الموت، أو الناس، أو تغير القلوب فيجعلك ذلك تفارق من تحب!!

وكل المحبين من الشعراء في أشعارهم لحظة الفراق هذه، أو انتظارها، فيقول ديك الجن:

"أخا الرأي والتدبير لا تركب الهوى

فإن الهوى يرديك من حيث لا تدري

ولا تثقن بالغانيات وإن وفت

وفاء الغواني من بالعهود: من الغدر"

حتى يا "ديك الجن"، وإن وفت بالعهد فإنها غادرة!! ونفس المعنى في شعر المتنبي:

"إذا غدرت حسناء أوفت بعهدها ومن عهدها: ألا يدوم لها عهد"

أبو تمام له نفس المعنى بل أنه يعممه:

ولا تحسبها هذا لها الغدر وحدها

سجينة طبع.. كل غانية هند

أما "أحمد شوقي" فكان أكثر هدوءاً وتجلداً ورفقاً في لحظات الوداع فقال:

"خدعوها بقولهم: حسناء

والغواني يغرهن الثناء

أتراها تناست اسمي لما

كثرت في غرامها الأسماء

إن رأتني تميل عني كان لم

تك بيني وبينها أشياء

وعند كل الأدباء الرجال، الحديث عن لحظة الفراق، هذا الحديث يعني أن المرأة قد وجدت آخر لحظة الفراق لها أكثر من تسمية عند الرجل: الخائنة، العاهرة، السائلة. وأول محاولة في ذلك ظهرت في القرن الرابع عشر وتسمى "الفاشيتا" وولدت في حجرة فسيحة من حجرات قصر الفاتيكان وهذه كتبها شخص يدعى "بونشو"، وفي القصة هذه العبارة "كان لي صديق من بولونيا محترم بين أصدقائه، إلا إن زوجته كانت

سخية جوادة مع الرجال، حتى أنها تعطفت عليه مرة أو مرتين في حياتها، ولكنها كانت مثل غيرها من النساء في هذه الأحوال تنكر كل شيء".

وفي إيطاليا ظهرت قصص "الديكاميرون"، وقام بها جيوفاني بوكاشيو، وكلها تحكي عن لحظة موت الحب بسبب الجنس ففي حكاية "المرأة المنتصرة" يقول إن رجلاً علم بخيانة زوجته، فتركها تذهب للقاء عشيقها وتظاهر بالنوم وعندما عادت وجدته قد أغلق الباب من الداخل، فأقسمت بأن تلقي بنفسها من البئر المجاور للبيت حتى يسامحها، وسمع الزوج بالفعل صوت ارتطام بقاع البئر، فهرع إلى الخارج لإنقاذها، ولكن الخائنة كانت زكية فألقت حجراً في ماء البئر، أحدث الصوت الذي أزعج زوجها، وعند خروجه عادت للمنزل وأغلقت الباب ونادت على الجيران وقالت لهم: "يا ناس.. يا هوه.. يرضيكم أن يتركني هذا الزوج الظالم وحدي ويذهب ليحتسي الخمر في الحانات وها أنا أعلمكم بحاله حتى تشهدوا!!" ويأتي الزوج من البئر مبلولاً يريد التدثر فيصدقها الجيران ويعتقدون أنه انزلق في البئر من أثر الخمر!

حتى في الأدب الجاهلي كانت هناك قصص عن ذلك وأشهرها طلاق الشاعر امرؤ القيس زوجته "أم حندب" فقد طلبت منه ومن شاعر آخر أن يتبارزا بالشعر تماماً كما كان يفعل فرسان العصور الوسطى ويفوز بالمرأة من يقتل صاحبه، ولكنها كانت في عصمة امرؤ القيس (أقصد زوجته). فقد طلبت أم جندب من زوجها ومن شاعر آخر اسمه علقمة الفحل أن يتباريا لتعرف أيهما أشعر، فقال كل منهما: أنا أشعر منك

يقصد من الآخر. فقال علقمة: أنا رضيت بما تحكم به زوجتك. فطلبت منهما أن يقولا شعراً يصفان به الفرس بقافية واحدة ووزن واحد.

فارتجل امرؤ القيس قائلاً:

خليلي مر بي على أم جندب   نقض لبانات الفؤاد المعذب

وقال علقمة الفحل:

ذهبت من الهجران في غير مذهب ولم يك حقاً طول هذا التجنب

وحكمت أم جندب بأن علقمة الفحل أشعر من زوجها فطلقها وتزوجت علقمة، لذلك سمي بالفحل!!ولكن المرأة لها أقوال أخرى: أشهرها المثل"يا مأمنة للرجال.. يا مأمنة للمية في الغربال"، وهي ترى أن "الحب" أنثوي، و"الجنس" ذكوري. وتمسك بالتاريخ.. تاريخ الرجل بالطبع، وكأنها لم تكتبه معه.وفي إطار المنطقة العربية تقول "أن في العاصمة بغداد أيام العباسيين والقاهرة أيام الفاطميين، وفي دنيا السلاطين.كانت هناك بيوت للإثم تقوم ودور للدعارة تشيد، وأن المواخير والحانات وجدت في عصر الرشيد والمعتصم والمتوكل، وأن كثيراً من الكتب منها كتاب "الخطط" توضح أنه في مصر القديمة كانت تجبى ضرائب ورسوم من بيوت الفحش!! فأين الحب والرجل يلعب هكذا بالمرأة؟! فلا توجد امرأة ساقطة أو عاهرة إلا لوجود رجل عينه زايغة"

وتكتب الأديبة "غادة السمان" بأن الذي صنع المرأة "الجارية"، هو الرجل، وأنه منذ هذه الحادثة وحدث ما حدث، أما الحكاية فحكاية

الخليفة الأموي سليمان بن عبد الله مع الفضل بن قدامة حيث اجتمع عنده الشعراء وأمرهم الخليفة بقول القصيدة في موضوع "الفخر" وأشعرهم يربح الجائزة: جارية!! ويقرأ الفضل بن قدامه أبياته، فيفوز بإعجاب الفرزدق والخليفة معاً وتصدر الأوامر: ادفع إليه بالجارية.. أما الجارية فهي"زهرة الرأي" التي كانت تحب فعلاً الخليفة الأموي، وقبل أن تفيق يقول الفضل بن قدامه لها: "والله إني لكنت أفضل المال؛ فعندي من الحريم ما يكفي"ويبيعها سراً حتى لا يعرف الخليفة.وتجد نفسها بعد ليلة مع الشاعر، تباع لرجل آخر!!

إذن ما الذي يحدث؟ لماذا لا يكون للحب لحظات أبدية ودائمة؟!

هل المرأة فجرت السبب وقالت إنه التاريخ.. تاريخ الحب؟!

(١) **المرأة.. هدية للضيوف**:

كان أهل القرن الثامن عشر في فرنسا يؤمنون بنظريات جان جاك روسو في الحياة الطبيعية.. ويعتقدون بأن الإنسان الطبيعي المتوحش هو إنسان طيب، وأن زنوج إفريقيا لا يختلفون عنهم إلا في اللون فقط، إلى أن هبط بحارة "بوجانفيل" إلى جزيرة تاهيتي وشاهدوا الأخلاق والعادات التي عليها الشعوب البدائية؛ فقد تحققوا من أن البكارة لديهم لا وجود لها، والعفة لا أثر لها، والحكم للغريزة العمياء. وقد وجدوا أن العلاقات في تلك الجزيرة متراخية والملذات سهلة، فغير الفرنسيون نظراتهم إلى أخلاقيات

الإنسان البدائي؛ فكيف يكون الحب وكيف يتم الاختيار والتفضيل في ظل حب قائم على رغبة يموت عند قضائها، ولا تنتج للمجتمع أي فضيلة؟

والدليل على ذلك قبائل الإسكيمو التي لا تعرف الحب تقدم نساءها هدية للضيوف وتكريماً لهم، وقبائل البوشمان تتناسل دون قاعدة ولا تعرف الزواج أو العائلة، وكذلك كانت قبائل الهنود الحمر قديماً.. ولقد ذكر الرحالة "كارفر" أنه شاهد في أمريكا الشمالية في إحدى قبائل الهنود الحمر امرأة متوحشة غنية وقوية البدن عرضت نفسها بمقتضى عادة قديمة للزواج من جملة رجال دفعة واحدة.. ولكن من الخطأ أن نسمي هذه العلاقة زواجاً لأنه لا تلبث أن تعقد حتى تنحل بناء على رغبة الأقوى والأغنى من الطرفين، وعلى الرغم من ذلك فإن المرأة تتمتع عند بعض زنوج إفريقيا بحرية نسبية نظراً لانصرافهم إلى نوع من الحياة الزراعية شبه المتحضرة؛ فهؤلاء الزنوج يعرف الأبناء منهم كيف يتضامنون لإنجاز العمل.

(٢) العلاقة الأخوية التي ابتدعها الفراعنة لتحمي من الخيانة، ولحماية الدم.

احتفظ التاريخ من العصر القديم بظواهر امتازت بها مصر منذ عهود الأسر القديمة، وأهمها تكريس النساء لخدمة إله الحب أو إلهة الحب، وهكذا التكريس الديني سبق الزواج وجدد نظاماً خاصاً للنساء اللواتي كن ملكاً لجميع الرجال وكان أبناء المرأة أبناء الجميع..وبالتالي كانت صلة النسب للمرأة لا للرجل، وكانت أرق وألطف عاطفة الحب بين الأخ

والأخت، ولقد كان العاشق في مصر القديمة ينادي معشوقته بأختي وهي كذلك، وكل الشعر المصري القديم يتحدث في إطار هذه العلاقة.

وتطور المجتمع المصري وظهر الزواج، وكانت المرأة المصرية إذا ذاك مميزة عن جميع الشرقيات وأكثر تمتعاً بالحرية؛ فكانت تتمتع حتى وهي متزوجة بالتصرف في ثروتها.. وكانت لا تسكن مع زوجها في بيته، وإنما تستقبله في بيتها ضيفاً مفضلاً، ولكنها كانت تقبل أن يكون لزوجها عدة زوجات غيرها تحيا كل منهن في بيتها.

ولم تكن العلاقات الغرامية عند المصريين القدماء علاقات هوى مشبوب عنيف يمازجه القتل وسفك الدماء، بل علاقات طبيعية يلطف من حدتها نوع من الحنان كما تدل على ذلك أشعارهم، وكانت أثواب الفتى والفتاة شفافة رقيقة، وكانا لا يجهلان سر العلاقة الطبيعية لدرجة أن شعرهما كان رقيقاً لدرجة تشبه الشعر الحديث، ها هي فتاة تقول:

"يا صديقي الجميل.. أتمنى أن أعيش وإياك كامرأتك"

"أتمنى أن تضع ذراعك على ذراعي وتمضي وفق هواك، وعندئذ أشكو لقلبي المحبوس في صدر كل آلامي"

"لو أنك يا أخي الأكبر لا تزورني الليلة، فلابد أن أصبح كسكان القبور"

"أو لست أنت الصحة والحياة أو لست أنت حامل الفرح والصحة إلى قلبي الذي يبحث عنك؟"

"إن جماهير الأطيار تتلاقى على النهر، ولكني أنصرف عنها وأفكر فيك يا غرامي، قلبي معقود بقلبك أنت".

وقال الفتى المصري العاشق لفتاته:

"أريد أن أرقد في حجرتي لأني مريض بسببك، ولأن الجيران قد وفدوا لزيارتي، لو أن رافقتهم أختي "حبيبته" لاستطاعت أن ترد الأطباء عني لأنها وحدها تعرف سر مرضي"

(٣) الحب عند البرابرة:

عند الشعوب البربرية كان للمرأة بعض السلطان، وتلك الشعوب كانت تعيش في مجاهل جرمانيا وغاباتها، وفي البلدان الشمالية حيث الشتاء بطيء والليالي طويلة مملة.. وعندما فتح جنود الرومان بلاد الغال بقيادة قيصر دهشوا كل الدهشة، أبصروا الرجال يسرفون في احترام نسائهم ويعتقدون أن المرأة المنحدرة من عنصرهم قوة خارقة تكاد تكون سحرية؛ فكانت المرأة في الحياة العامة مساوية للرجل.. تدرس العلوم الدينية المقدسة مثله، وتقرأ الطوالع، وتتنبأ بالمستقبل.. كانت نصف الأملاك المشتركة بينها وبين زوجها ملكاً لها، وكانت تورثها جمعياً في حالة وفاة زوجها.. وكان لزوجها عليها حق الحياة والموت..

ومن أبسط الأدلة على تفوق المرأة في الشعوب البربرية حكاية "أبيونين" التي تمثلت في حبها لزوجها عبقرية المرأة متى أحبت؛ فكانت تعبد زوجها "جوليوس سابينوس"، فحدث أن نفاه الإمبراطور فسبازيان،

فاضطر الرجل إلى الاختفاء والحياة في شبه سرداب أو مغارة بعد أن أشاع أهله أنه قد مات؛ فكانت أبيونين تذهب لملاقاته في المغارة كل ليلة، ولا تعود إلى بيتها إلا عند الفجر، حيث تبدل شخصيتها وتمثل أمام الجميع دور الأرملة اليائسة.

(٤) الحب عند الإغريق:

وكانت الإغريقيات محجبات في البيوت على مثال الأسيويات في دور الحريم، وكان الرجل الإغريقي غيوراً على المرأة، ولم تكن لنساء الإغريق إذ ذاك أيه حقوق عامة، وكان رجالهم ينظرون نظرة الاستنكار إلى اختلاط الجنسين أو اشتراك الفتيات والفتيان في الرقص والألعاب الرياضية. إلا أن بعض الفلاسفة الإغريق كانوا يرون في هذا الاختلاط عاملاً من عوامل تخفيف حدة الشهوات والرقي بالعادات والأخلاق، وحفز الشباب على التمسك بالعفة عن طريق الألعاب الرياضية بواسطة الاختلال الذي يجرد المرأة من سرها ويجعلها في نظر الشباب إنساناً عادياً..

ولكن رجال الإغريق في مختلف المدن الأخرى كانوا يرون غير ذلك، ولا يؤمنون بتلك العفة التي لا حياء لها والتي لا تحقق إلا عن طريق اختلاط الجنسين؛ فكانوا يريدون المرأة الأثينية لتكون زوجة صالحة تسهر على أعمال البيت وتحتجب فيه، ولم يكن يسمح للرجال بالدنو منها عدا أقاربها.وبالتالي لم يكن الحب أساساً في الارتباط الزوجي وبالتالي سمح للكثير من الأزواج بمخادعة زوجاتهم ولكن لم يسمع مثل الوضع للزوجات!!

ونشرت قصص عن سعادة بين زوجين بدون حب مثل قصص "هيكتور وأندروماك".. فهل ما قاله شوبنهور صحيح عندما وصف الحب عنده: بأنه شرك نصبته له غريزة النوع!! وأنه عند النساء كما وصفه بلزاك بأنه: "شعر الحواس عند حواء". أم أنه كما قال العلامة لويس مينار: "أنه مجرد طفل يريد أن يولد"!!

إن اللواء د. نيازي حتاتة ضابط الشرطة المتخصص فى الآداب والدعارة وصاحب الدكتوراه في القانون، في هذا الموضوع يقرر أنه عبر التاريخ الإنساني سقطت كل دعاوى التطرف في اللذات الجنسية أو في العفة الجنسية، وأنه بقي النص الديني هو الدليل على دوام الحب، إذا وضع في إطار التوسط والزواج؛ فالحب يدوم بالمسئولية وينتهي بغيرها.

والقرآن الكريم يقول: "هو الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها"، وجاء في التوراة "خلق الله المرأة من ضلع الرجل، هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي، هذه تدعى امرأة لأنها من أمريء أخذت".فاللحظة الأبدية في الحب تكون بالزواج وفي مؤلفاته يستعرض دعاوى اللذة والعفة.

دعاوى ومذاهب التطرف والانحراف باللذة وتقديس الجنس:

(١) مذهب "أورقي الموسيقي" الإغريقي الذي نادى باللواط "العلاقة الجنسية بين الرجل والرجل".

(٢) مذهب "سافو" الذي ظهر في اليونان القديمة ونادي بأن العلاقة بين الرجل والمرأة دنسة وأن العلاقة النورانية الطاهرة بين المرأة والمرأة.

(٣) مذهب القربوقراطيين: في برقة بليبيا في القرن الثاني الميلادي ونادى بالشيوعية الجنسية بدعوى أن الله خلق الرغبة الجنسية فلا يجوز تقييدها.

(٤) شيعة نيقولا: أحد الشحامة السبعة "كما جاء في كتاب قصص الرسل" وقد نادت هذه الشيعة بالفوضى الجنسية واتهمها الأرثوذوكس بذلك.

(٥) شيعة القابليين: نسبة إلى قابيل وكانت تدعو إلى سيطرة المادة على الروح وتنادي باللواط والفسق

(٦) شيعة الآدميين: وهم عراة تشبهاً بآدم، في القرن الثاني، ومن رأيهم أن ما هو حق في الظلام يكون أحسن في النور.

(٧) شيعة اللوائيين: في مدينة أنفرس في العصور الوسطى، ومن رأيهم أن الإنسان لا يجب أن يعود إلى البوتقة التي خرج منها، فيجب أن يتجرد من النوم والتوبة لأن الجسد لا يدنس الروح، ولا بد أن تقضي الخطيئة على الخطيئة.

(٨) وفي أيام الأمويين قام عماد بن يزيد بنشر بدعة في خراسان "دين الخرامية" فرخص للرجال في نساء بعضهم البعض "عام ١١٨هـ" وهو ما يعرف في العصر الحديث بنظرية "تبادل الزوجات".

وكذلك لم تدم المذاهب المتطربة في العفة الجنسية ومنها:

(١) مذهب الفاليسيين نسبة إلى الراهب فاليسياس في القرن الثالث، حينما نادى بأن الإنسان لا يكون طاهراً إلا إذا تجرد من كل مخلفات الخطيئة، وهكذا تبتر أعضاء الرجال وأثدية النساء.

(٢) مذهب السكوبيتس، في روسيا في القرن الثامن عشر، ويقوم على فكرة أن خطيئة آدم الجماع، فيجب بتر الأعضاء الذكورية والأنثوية.

ولكن الخيانة الجنسية عند المرأة أوضح وأظهر عبر التاريخ لميراث طويل ورثته، وها أنا أنقل من مذكرات لطلبة كلية الدراسات العليا بأكاديمية الشرطة، فقد كنت تلميذاً للواء نيازي حتاتة واقتربت منه وبحثت معه بحثاً صغيراً عن "دور الشقق المفروشة في تسهيل الدعارة عند القاصرات" ولا زلت أحتفظ بها؛ فهو يرى أنه منذ العصر القديم الأنيوليتي "عصر بدأه استعمال المعادن" في وسط وجنوب أسيا والرجل الغريب مثل الإله، فلا بد للفتاة قبل زواجها أن تستقبل رجلاً غريباً ليواقعها، وحينئذ تحصل على بركة الإله، وتستطيع أن تتزوج وتنجب. ولما قامت المعابد كانت المرأة تدخل المعبد وتمارس البغاء فيه مع الغرباء من العملاء ليباركها إله المعبد، ثم تحول حق مواقعة النساء في المعبد إلى كهنة المعبد لنفس الغرض، بل تحولت طقوس إزالة البكارة فيما بعد إلى إزالتها على أعضاء التماثيل التي تمثل الإلهة، فكانت الفتاة تجلس على عضو بارز في التمثال تزيل بكارتها فوقه، وبالتالي تكتسب التقديس الذي يؤهلها لأن تكون زوجة ولودا.

ولما عبدت الأعضاء التناسلية لم يكن ذلك انحرافاً عن الدين أو العقل أو الأخلاق، إنما كان ذلك لا يعتقد من أن قوة الإله المخصبة إنما يعبر عنها العضو التناسلي، إذ فيه تكمن القدرة على حفظ الإنسان وبقاء نوعه على الأرض، وكذلك فعبادته هي عبادة مصدر القوة الخلاقة.

وفي العصور الوسطى انتقل حق إزالة البكارة إلى سيد الإقطاع في بعض المجتمعات، وظل حق إزالة البكارة حتى عصرنا هذا في بعض البلاد مقصوراً على نساء من العجائز أو الأقارب أو القابلات. وفي بعض المجتمعات الإفريقية يصحب الأب ابنته قبل زواجها إلى بلاد نائية حتى تجد من يواقعها لأول مرة من الغرباء، ثم يعود بها إلى بلدها بعد أن أصبحت صالحة للزواج وحينئذ يسارع الشبان إلى خطبتها.

لقد عرفت سومر خادمات أو سراري الآلهة في المعابد، وعرفت بابل بغايا معبد الآلهة ميليتا، ويقال أن قسطنطين ألغى بغاء هذا المعبد في القرن الرابع قبل الميلاد، وعرف البغاء المقدس فى كلوانيا وسوريا وفينيقيا وليديا والفرس والهند وأرمينيا وميديا وبارفيا وقرطاجنة. وعرفت مصر حريم الآلهة أو خدم آمون أو سراري الإله في المعابد القديمة.

وانتقل البغاء المقدس إلى قبرص وأثينا وروما، وعرفت من معابده معابد الإلهة أفروديت وفينوس ورياب وباكو وموتينوس وغيرها، بل أن بغاء الذكور أيضاً كان موجوداً في بعض المعابد مثل معبد يرسوه إله العبرانيين والإلهة أنايتب في أرمينيا.فالمرأة خدعوها حتى عن طريق المعابد بأهمية الجنس.

البغاء الضيافي:

تولد البغاء الضيافى عن فكرة البغاء المقدس، وبمقتضاه تستقبل الفتاة في الأسرة الضيوف ليواقعوها باعتبارهم يمثلون الرجل الغريب، وقد اشتهر هذا النوع من البغاء في فينيقيا وقبرص والصين القديمة والهند القديمة، ولا يزال معروفاً حتى الآن بين قبائل الإسكيمو.

البغاء العادي:

على الرغم من وجود البغاء الديني أو الضيافي، فإن البغاء العادي ظل موجوداً، وكانت له درجاته وتسمياته المختلفة في كل العصور، وكان المشرعون يتشددون أحياناً في العقاب عليه، ويتسامحون أحياناً أخرى.ففي مصر اشتهرت طائفة قديمة من البغايا في عصر الفراعنة، وانتشر البغاء في أرض إسرائيل قبل نزول التوراة، وكان في اليونان القديمة طبقة الديكترياد وهي أحط أنواع البغايا، وطبقة الهيتيرا، وهي أرقى أنواع البغايا، ثم طبقة الأولتريد أي البغايا العارفات.

واشتقت روما اسمها من بوميلوس، وهو شقيق ريموس، ولدي أكالارنتيا، التي كانت بغيا في التلال السبعة التي قامت عليها روما فيما بعد، وكانت كلما رأت مارا من الرجال صاحت تناديه بصوت كصوت الذئبة، لذلك أطلقوا عليها ومنها أطلقوا اسم "لوبانار" على بيت الدعارة.

وعرفت بعد ذلك الأعياد اللوبركالية تخليداً لذكرى لوبا، وهي تشبه الأعياد الفلورالية تخليدا لذكرى فلور، وكلها أعياد فسق وفجور.

ولما اكتشفت مدينة بومبي في إيطاليا في القرن الماضي مدفونة تحت ركام بركان فيزوف، اتضح أنها كانت مدينة فاسقة من عهد الرومان، كل جدرانها وأرضها وسقفها محلاة بصور ورسوم ونقوش الفسق والبغاء.

وفي الجاهلية عرفت صاحبات الرايات، وكن يفتحن بيوتهن على هيئة أكواخ على باب كل منها راية حمراء تدل على أن المكان للبغاء. وفي بغداد عرفت بيوت الكشاخنة. وفي العصور الوسطى عرفت طبقة الكوزيزان أي البغايا لمشتقات الملوك والأمراء وكبار القوم. وفي عصر العرب عرفت طبقة الجواري المغنيات، وعرف البغاء في عصر الفراعنة في مصر، ثم عصر البطالمة، ثم عصر الرومان.

ولما دخل العرب مصر حذر عمرو بن العاص جنوده بقوله "إياكم والمومسات المعسولات فإنهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم".

ولن يسكت الرجل عن اتهام المرأة بأنها هي التي أنهت الحب أو أنهكته، ولن تسكت المرأة عن الرجل بأنه هو السبب: تزوج غيرها، وأضاف عليها، أو طلقها، أو سافر، أو رحل، ويقول: "سافرت من أجلك".. وتقول: "افتقدتك!!" ويقول لها: "أسقطتني الغربة"، وتقول له: "أضاعني الحرمان".. وتسمع عبارة: العرق دساس؟! أي أنها الوراثة. وتسمع عبارة الشر موجود في كيان الإنسان العضوي، أما الظروف فشأنها قليل!! وتخرج ألف نظرية عن الخيانة، أو ترك الحب أو حب الرجل، أو هجر المرأة.. أو.. أو..

وتبقى راية الدين مرفوعة، وباقية، ضد هذه الخيانة في التوراة: "فلما سمعت امرأة أوريا أنه مات، ندبته، ولما انتهت المتاحة ضمها داود إلى بيته وصارت له امرأة. وأما هذا الأمر الذي فعله داود، فقبح في عين الرب".

وفي القرآن "وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلَّقت الأبواب، وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون"!!

إذن الجنس غير الشرعي شر سواء أكانت تمثله امرأة العزيز في قصة يوسف الصديق أو النبي الملك داود في قصة امرأة أوريا أو أي ساقط أو ساقطة، فالقاعدة تقول: "تجوع الحرة ولا تتاجر بثديها" أو لا تمارس الجنس إلا مع زوجها.إذن هناك الجنس الشرعي والجنس غير الشرعي. وحينما نشتهي الجنس غير الشرعي، أو نريد أن نغير فراشنا – بتعبير أولاد البلد – فتلك هي اللحظة التي لا تجعل الشيء أبدياً...

الحب أبدي، ولكن ضعف الإنسان جعله غير أبدي، ضعفه ضد السلطان وضد الناس وضد الاقتصاد وضد الفقر، وضد المرأة الأخرى والرجل الآخر.. إن سارة زوجة النبي إبراهيم كانت مثالا لامرأة تقف ضد هذا الضعف من الملك الفرعوني، بعد أن ادعى النبي إبراهيم أنها أخته عند دخوله مصر ولكنها رغم ما فعله إبراهيم لم تقل عبارة كل امرأة: البادي أظلم.. وإنما كانت الأحكم!!.

تم بحمد الله

مراجع الكتاب

- مي.. حياتها وصالونها وأدبها – وديع فلسطين
- التماثيل المكسورة – رجاء النقاش
- كانت لنا أيام في صالون العقاد – أنيس منصور
- أوراق على شجر – أنيس منصور
- الوجه الآخر لجبران – ميخائيل نعيمة
- رسائل غسان كنفاني لغادة السمان – غادة السمان
- غرام الأدباء – عباس خضر
- لغز أم كلثوم، وكلمات أخرى – رجاء النقاش
- شخصيات لا تنسى – مصطفى أمين
- كامل الشناوي، آخر ظرفاء ذلك الزمان – يوسف الشريف
- مذكرات تحية كاريوكا "أيام في الحب والحياة" – نشر بجريدة الأنباء الكويتية
- مشاهير وظرفاء القرن العشرين – هاني الخير
- من قتل أسمهان – ناصر حسين

– حكومات في جيوب الفنانات	– ناصر حسين
– راقصاتنا والجاسوسية	– ناصر حسين
– يسقط الحائط الرابع	– أنيس منصور
– أزمة الجنس في القصة العربية	– د/ غالي شكري
– على هامش الأدب والنقد	– علي أدهم
– التحليل النفسي لغراميات المشاهير	– سمير عبده
– مشاهير ومخدرات	– أشرف توفيق
– مذكرات في الثقافة والسياسة "جزءان"	– ثروت عكاشة

الفهرس